



دوستويفسکي

ذکرِ یارین سنا و معنی سنا هر صیف



ترجمہ: د. ساجی الدروبی

مكتبة فريق_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف

قصة مترجمة (١٨٦٣) ..

الكاتب: فيودور ديستوفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

عن هذا الكتاب..

«ذكريات شتاء عن مشاعر صيف»، ظهرت في مجلة «الزمان» سنة 1863؛ فأما
الفصول 1، 2، 3، 4 ففي عدد شهر شباط (فبراير)، وأما الفصول 5، 6، 7، 8،
ففي عدد شهر آذار (مارس)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تقديم: بقلم الدكتور سامي الدروبي

في شهر حزيران (يونية) سنة 1862 قام دوستوفسكي بأول رحلة له إلى الخارج ليستريح من عمله المرهق محرراً لمجلة «الزمان». فمرّ بألمانيا ووصل إلى باريس فلم يمكث فيها إلا عشرة أيام ثم سافر إلى لندن، فلبث بها أسبوعين، وهناك تعرف بالفوضوي باكونين، وتعرف بالمهاجر هرتسن محرر جريدة «الناقوس»، التي كان يجدها المرء في روسيا حتى على مكتب ألكسندر الثاني. وقد كتب هرتسن يقول بعد مقابلاته مع دوستوفسكي: «هو إنسان ساذج خجول مضطرب بعض الشيء، لكنه لطيف جداً، وهو واثق بالشعب الروسي ثقة زاخرة بالحماسة».

ومن لندن عاد دوستوفسكي إلى باريس ف قضى فيها أسبوعين آخرين ثم تركها إلى جنيف ماراً بمدينة بال. وفي جنيف التقى بصديقه نيقولا ستراخوف، فزار الصديقان إيطاليا معاً. وقد كتب ستراخوف بعد ذلك يقول: «لا الطبيعة ولا المباني ولا آثار الفن كانت تعنيه، وإنما كان يتصرف انتباهه كله إلى الناس». إن هذا الفائن العظيم إلى أعماق النفوس يلتفت انتباهه كله إلى الجماهير وإلى البشر في الشوارع وفي المسارح وفي المقاهي. إنه يحاول أن يفهم سيكولوجية كل شعب أثناء هذه الرحلة الخاطفة التي استغرقت نحو شهرين.

وفي شتاء 1862-1863 نشر دوستوفسكي في مجلته هذه «الذكريات» التي لا يتحدث فيها عن رحلته إلا قليلاً، وإنما هو يستخدم هذه الرحلة ليعرض آراءه في تاريخ روسيا وفي وضعها، وليتهمك على البلاد التي مر بها، ليتهمك على ألمانيا وانجلترا، وعلى فرنسا خاصة. ثم لا يذكر إيطاليا أو سويسرا بخير أو شر.

فبعد أن ينقل إلينا بعض انطباعاته عن ألمانيا في الفصل الأول. وهي انطباعات سيئة، يستهل الفصل الثاني بجملة قالها فونفيزين سنة 1787، وهي أن «الفرنسي محروم من العقل، ولو أوتي عقلاً لعد ذلك أكبر شقاء يصيبه». ولكنه بدلاً من أن يحدثنا عن فرنسا يأخذ يتذكر روسيا القرن الثامن عشر، وسادتها الذين يرتدون الزي الفرنسي والذين يختلفون عن سواد الشعب اختلافاً كبيراً، ثم يقول مع ذلك أن أولئك كانوا أقرب إلى الفلاح من مثقفي القرن التاسع عشر رغم كل شيء. وبعد هذين الفصلين «النافلين» الزائدين اللذين ينصرف فيهما الكلام إلى روسيا ومشكلاتها الراهنة في ذلك الزمان ينتقل أخيراً إلى الكلام عن فرنسا نابليون الثالث فيصفها وصفاً فيه سخرية لاذعة. ويرى بعضهم أن حقد الكاتب على الفرنسيين والإنجليز هو الذي أملى عليه هذه السخرية اللاذعة، لأن حرب القرم لم يكن قد انقضى عليها إلا سبع سنين.

يظهر دوستوفسكي دهشته من كثرة عدد الجواسيس في فرنسا، ومن الإفراط في مراقبة الأجانب نزلاء الفنادق، ويتهمك على البورجوازي ويصفه وصفاً زائراً بالسخرية، ويهزأ بوطنية الفرنسيين قائلاً إنك لن تستطيع أن تنتزع من عقل الفرنسي، أي من عقل الباريسي (لأن جميع الفرنسيين في الواقع باريسيون) اعتقاده بأنه أول إنسان على وجه الأرض، رغم أن الفرنسي من جهة أخرى لا يعرف من الأرض، باستثناء باريس، إلا قليلاً جداً، ولا يحرص أي حرص على أن يعرفها.

ويسخر دوستوفسكي من فصاحة البيان وبلاغة اللسان لدى الفرنسيين، ويرى التعبير عن ذلك في «الهيئة التشريعية» التي لا تضم إلا ستة نواب معارضين، ويؤتى إليها بالأمر بونابارت الذي يسمح لنفسه أحياناً بانتقاد الحكومة. ويسخر من البورجوازي، من حبه للتملك، من حاجته الى «التقلب على العشب»، إلى أن يملك منزلاً له، إلى أن يرى البحر مرةً في حياته. ويسخر خاصة من الحياة العائلية التي لم يعرفها دوستوفسكي، والحق يقال، إلا من خلال مسرحيات سكريب وأوجييه وبونسار، والتي تصور الثلاثي الأبدي: الزوج والزوجة وعشيق الزوجة.

فإذا تكلم عن إنجلترا هاله ما يراه فيها من ازدحام الناس وسرعة الحياة فكأنه يرى يوم الحشر. لئن كره دوستوفسكي سان بطرسبرج. لقد كره لندن مزيداً من الكره: سكك حديدية فوق المنازل (وتحتها قريباً)، فوضى هي النظام البورجوازي في دروته، نهر التاميز المتسمم، الهواء المشبع بالفحم، الميادين والحدائق الرائعة مع الأحياء الكالحة المتجهمة مثل حي هوايتشابل، المزدهم بسكانه الهمج السائبين الذين يوشكون أن يكونوا عراة، «المدينة» بملايينها وحركتها وتجارها. إن هذا كله يبدو لدوستوفسكي كأنه معبد الإله بعل. وهناك صورتان تخطفان البصر خاصة: صورة النزاهات في هايماركت حيث يلقي المرء مئات من البغايا، وصورة ليلة الأحد حيث يرى ألوف العمال يسكرون ويُعربدون بينما أولادهم يتسكعون في الشوارع.

والكهنة الانجليز لا يعيشون إلا للأغنياء ولا يزورون الفقراء. هذه بلاد لا تؤمن بالله، هذه بلاد يختنق فيها الإنسان تحت وطأة المال والحساب. ويتنبأ دوستوفسكي لهذا التقدم البورجوازي بأنه إلى أفول وزوال بعد أن بلغ دروته.

إن الانتقادات اللاذعة التي يوجهها دوستوفسكي إلى الرأسمالية الانجليزية تذكر بانتقادات كارل ماركس الذي لم يقرأ دوستوفسكي في يوم من الأيام. إن دوستوفسكي يثور على الرأسمالية وعلى الروح البورجوازية ثورة ماركس عليهما. وهو يرى أن الاشتراكية الحقّة لا يمكن أن تقوم في الغرب، لأن الغربي فردي، فهو لا يقبل أن يضحي بشيء من حريته الشخصية في سبيل الجماعة. ومن المعروف أن دوستوفسكي مثلاً أعلى في الاشتراكية قائماً على التضحية الإرادية والإيمان الروحي، وحب الآخرين والأخوة الإنسانية، والتساند والوفاق البشري. وقد عبر عن هذا مجملًا في هذه «الذكريات».

وهو يرى أن الشعب الروسي مفطور على هذه المعاني التي يتطلبها قيام الاشتراكية، أكان هذا نبوة نبي؟ ولكن نبوءات دوستوفسكي في الشؤون السياسية لم تصدق كثيرًا على وجه العموم. إن هذا الفنان الذي غاص إلى أعماق النفس الإنسانية وسبر أغوارها، لم يكن في أكثر الأحيان مفكرًا سياسيًا صادق الحدس صادق النبوءة!.



الفصل الأول

بمثابة مقدمة

منذ أشهر عدة، توحون إليّ، يا أصدقائي، بأن أصف لكم أخيراً ما أحسست به في البلاد الأجنبية، وما تركته تلك البلاد في نفسي من آثار؛ توحون إليّ بذلك دون أن يخطر ببالكم أن هذا الطلب يزجني في طريق مسدودة غير نافذة. فما عساني أكتب أو أحكي من أمور جديدة مجهولة؟ من منا، نحن معشر الروس، أعني أولئك الذين يقرأون الصحف والمجلات على الأقل، لا يعرف أوروبا أكثر مما يعرف روسيا مرتين في أقل تقدير. أقول مرتين من باب التآدب، ولو قلت عشر مرات لكنت أصدق. وعدا هذه الاعتبار العامة، فإنكم تعلمون حق العلم أنني لا أملك ما أقصه وما أصفه على نحو منظم، لأنني لم أرَ شيئاً من الأشياء على نحو منظم، لأنني لم يتسع وقتي لأن أنعم النظر فيما رأيت. لقد زرت برلين، ودرسدن، وفسبادن، وبادن بادن، وكولونيا، وباريس، ولندن، ولوسرن، وجنيف، وجنوه، وفلورنسا، وميلانو، والبندقية، وفيينا؛ حتى لقد زرت بعض الأماكن مرتين. وهذه الجولة كلها قد أتممتها في شهرين ونصف شهر تماماً. فهل يستطيع المرء أن يدرس الأمور كما ينبغي أن تدرس حين يقوم بجولة كهذه الجولة في غضون شهرين ونصف شهر؟ نتذكرون أنني رسمت مسار رحلتي قبل أن أغادر بطرسبرج. لم يسبق لي أن سافرت إلى الخارج قبل ذلك قط: كنت أحلم بذلك منذ طفولتي الأولى، حين كنت أصغى، فاعزّ الفم، ممتلئ القلب حماساً وهولاً، أثناء ليالي الشتاء الطويلة، لجهلي بالقراءة، إلى أبيّ وهما يقرآن قبل النوم روايات مسز رادكليف (1) التي كانت تسلمني بعد ذلك إلى أحلام ثقيلة وكوابيس رهيبة. وإذ أنني لم أستطع أن أفلت أخيراً إلا وقد بلغت الأربعين من عمري، فقد أردت طبعاً أن أرى كل ما يمكنني أن أراه، بل وأن أرى كل شيء، كل شيء على الإطلاق، رغم أن الزمن محدود. يُضاف إلى ذلك أنني كنت عاجزاً عجزاً كاملاً عن اختيار الأماكن بهدوء وغير مبالاة! رباه! لشد ما كنت أمني نفسي بهذه الرحلة! كنت أقول لنفسي: «هبنى لم أنعم النظر في كل شيء تفصيلاً، فسأكون قد طفت بكل مكان، وسأستمد من ذلك رؤية إجمالية، سأحظى من ذلك بإطلالة من فوق. سأرى بلاد «العجائب المقدسة» (2) دفعة واحدة، بنظرة تشبه نظرة الطائر من علياء السماء، أو تشبه نظرة الإنسان يتطلع إلى أرض الميعاد من على ذروة جبل. أي سوف أشعر بإحساس جديد، قوي، رائع.

والآن، بعد أن رجعت إلى منزلي، هل تعلمون ما الذي يحزنني أكثر مما يحزنني أي شيء آخر، حين أتذكر أسفاري الصيفية تلك؟ ليس الذي يحزنني أكثر مما يحزنني أي شيء آخر هو أن رؤيتي للأمور كانت رؤية سطحية، بل أنني زرت كل مكان، إلا روما. ومهما يكن من أمر، فلعلني لو ذهبت إلى روما لفاتنتي البابا... الخلاصة أنني أشعر بظماً محرق إلى الأشياء الجديدة، وتغيير الأماكن، والمشاعر الكلية المركبة الإجمالية. فماذا تنتظرون مني بعد مثل الاعتراقات؟ ماذا أقص وماذا أصف؟ أتناظر يراها رجل يطل من أعلى طائراً كعصفور؟ ألا إنكم ستكونون أول من يقول لي أنني كنت مسرفاً في التحليق أثناء الرؤية. ثم إنني امرؤ يعد نفسه شديد

التعلق بالدقة في الصدق حتى من حيث أنه سائح. وإذا شرعت في أن أصف لكم ولو منظرًا أطل عليه من فوق، فلا بد لي أن أكذب حتمًا، ولا بد لي أن أكذب لا من حيث أنني سائح، بل لهذا السبب البسيط وهو أنني يستحيل عليّ في الوضع الذي أنا فيه إلا أن أكذب. ألا ترون معي هذا الرأي؟

إن مدينة برلين، مثلاً، قد تركت في نفسي أثرًا بالغ الحموضة ولم أمكث فيها إلا أربعًا وعشرين ساعة. إنني أشعر الآن بأنني آثم في حق برلين: لست أجرو أن أزعم أنها تخلف في النفس أثرًا حامضًا ولو قلت أنها تخلف في النفس أثرًا «حامضًا عذبًا» لكان ذلك أصدق في أحسن تقدير. فما مبعث خطئي الحتمي ذاك؟ مبعثه أنني، وأنا مريض أعاني آلامًا في الكبد، قد لبثت يومين كاملين أرتج في حافلة القطار بين منظر الأمطار والضباب إلى أن وصلت برلين، فلما بلغت شاحب الوجه مخلص الأعضاء محطم الجسم لاحظت أن هذه المدينة تشبه سان بطرسبرج شبهًا عجيبًا: فالشوارع الممدودة هنا هي نفس الشوارع الممدودة هناك، والروائح هي نفس الروائح، و... وكذلك سائر وجوه الشبه الأخرى! قلت لنفسي: «رباه! أكان يستحق هذا مني أن أضني جسمي في القطار يومين كاملين في سبيل أن أرى ما أنا هارب منه؟». حتى شارع أشجار الزيزفون (3) لم يعجبني، مع أن ساكن برلين مستعد لأن يضحي في سبيل المحافظة عليه بأعز ما يملك، وربما ضحى في سبيله بالدستور. هذا إلى أن هيئات أهل برلين، من أولهم إلى آخرهم، كانت جميعها هيئات ألمانية تبلغ من ألمانيتها أنني زهدت في مشاهدة صور الجدران التي رسمها كالباخ (4) (يا للهول!) وأسرعت أهرب إلى درسدن مقتنعًا اقتناعًا عميقًا بأن عليّ أن أعود على الألماني أولاً، وإلا كان يصعب عليّ جدًا أن أحتمله في جمهور.

وفي درسدن أسأت إلى الألمانيات أنفسهن: لقد بدا لي، منذ وطئت قدمي الشارع، أن نساء درسدن هنّ أدعى ما في العالم إلى الاشمئزاز، وأن شاعر الحب نفسه، فزيفلود كريستوفسكي (5)، وهو أكثر الشعراء الروس اقتناعًا وطربًا، لا بد أن يطيش هنا صوابه فإذا هو يشك في رسالته الشعرية. وسرعان ما شعرت طبعًا أنني إنما أقول سخفًا، لأن هذا الشاعر لا يمكن أن يشك في رسالته بحال من الأحوال. وما انقضت ساعتان حتى فسّرت لنفسي كل شيء: فإنني حين عدت إلى غرفتي بالفندق ومددت لساني أمام المرأة، اقتنعت بأن رأيي في نساء درسدن ليس إلا تجنيًا رديئًا وإساءة بالغة. لقد كان لساني أصفر اللون تغشاه طبقة من... فقلت لنفسي: «رباه! أيمن أن يكون الإنسان، وهو ملك الكون، رهنا بحالة كبده إلى هذا الحد! يا للشقاء!...».

ثم مضيت إلى كولونيا ممثلًا بهذه الأفكار التي تعزي النفس. وأعترف لكم بأنني كنت أتوقع من الكاتدرائية أشياء كثيرة. لقد رسمت هذه الكاتدرائية بكثير من التقديس والتبجيل في شبابي، أيام كنت أدرس هندسة العمارة (6) وحين مررت بمدينة كولونيا ثانية أثناء عودتي إلى باريس، فرأيت الكاتدرائية مرة أخرى، أردت أن «أجثو على ركبتَي أمامها»، مستغفرًا إياها أنني لم أدرك جمالها فورًا في المرة الأولى، تمامًا كما فعل كارامازين (7) حين ركع أمام شلال نهر الراين. إن كاتدرائية كولونيا لم تعجبني حين رأيته أول مرة. قلت لنفسي حينذاك: «هي دانتيلًا

لا أكثر... ما هي إلا دانتيل... ما أشبهها بلعبة من الأطفال.. ما أشبهها بضغطية ورق طولها مائتا ذراع!». حكم شبيه كل الشبه بالحكم الذي كان أجدادنا يصدرونه في حق بوشكين حين يقولون: «إن في نظمه إسرافاً في السهولة. إنه تعوزه الرفعة وينقصه السمو!».

أحسب أن هناك طرفين قد كان لهما تأثير في ذلك الحكم الأول. فأما الطرف الأول فهو ماء الكولونيا. لقد كان مصنع جان ماري فارينا قرب الكاتدرائية. وأياً كان الفندق الذي أنت فيه، وأياً كان المزاج الذي أنت عليه، وأياً كانت براعتك في الهروب من أعدائك ومن ماري فارينا، فإن بائعيه لا يفوتهم أن يكتشفوا المكان الذي اعتصمت به ولجأت إليه، وأن يبادروك بقولهم: «حياتك أو ماء الكولونيا»، لا أستطيع أن أقول جازماً أنهم كانوا ينطقون بهذه الكلمات نفسها: «حياتك أو ماء الكولونيا!»، ولكن من يدري؟ جازز جداً أنهم كانوا يقولون ذلك بعينه. وعلى كل حال فإنني أتذكر أن الأمر كان همّاً يحاصر نفسي في كل لحظة. وأما السبب الثاني للحقن الذي استولى عليّ فهو الجسر الجديد في مدينة كولونيا. هو في الحقيقة جسر رائع، والمدينة كلها تقتخر به، ولافتخارها ما يبرره في الواقع، ولكن هذا الافتخار كان يبدو لي مسرفاً مفرطاً. فسرعان ما أغضبني هذا طبعاً، ثم إن محصل الرسوم على ذلك الجسر الرائع ما كان له أن يحصل مني الرسوم (رغم أنها رسوم عادلة والحق يُقال) كمن يفرض عليّ غرامة لمخالفة ارتكبتها أو جنة قارفتها. لقد أحسست أن هذا الألماني متغطر متجبر. قلت لنفسي: «لا شك أنه حزر أنني أجنبي وأني روسي، كانت عيناه على الأقل تشبهان أن تقولاً: «هل ترى جسرنا أيها الروسي المسكين؟ ألا فاعلم أنك لست إلا دويذة حقيرة بالقياس إليه، وبالقياس إلى أي ألماني، إذ ليس في بلادك جسر يشبه هذا الجسر». اعترفوا أن هذا أمر مزعج يثير الأعصاب ويستفز النفس. صحيح أن الألماني لم ينطق بهذه الجملة، ولعلها لم تخطر له على بال. ولكن ذلك لا يعنيني كثيراً. فإنما المهم أنني بلغت عندئذ من الثقة بأنه يريد أن يقولها إنني غضبت غضباً شديداً. قلت لنفسي: «يا له من وقح! نحن أيضاً قد اخترعنا السماور، ولدينا مجلات، ونصنع بضائع للضبباط. نحن...». الخلاصة أنني زعلت في غير داع إلى زعل، وتزودت بزجاجة من ماء الكولونيا (لم أستطع من شرائها فكاكاً)، وسافرت فوراً إلى باريس آملاً أن يكون الفرنسيون أكثر لباقة وكياسة، وأن أجد فيهم مما يشوقني ويثير اهتمامي أكثر مما وجدت من ذلك لدى الألمان.

فاحكموا الآن على الأمر بأنفسكم: لو قد سيطرتُ على نفسي وتحكمت بعواظي، فقضيت ثمانية أيام في برلين، ومثلها في درسدن، وقضيت ثلاثة أيام في كولونيا أو يومين على الأقل، إذن لنظرتُ حتماً بعين أخرى إلى الأشياء نفسها مرة ثانية فثالثة، ولكونت عن هذه الأشياء فكرة أسلم ورأياً أصدق. كان يمكن لشعاع من شمس، لشعاع بسيط من شمس، أن يحدث أثراً كبيراً وأن يكون له شأن خطير: لو كانت أشعة الشمس تغمر كاتدرائية كولونيا أثناء زيارتي الأولى لها في ذلك الصباح القاتم الممطر، كما كانت تغمرها أثناء زيارتي الثانية، لرأيت ذلك المبنى رؤية تختلف عن رؤيتي الأولى التي أيقظت في نفسي إفراطاً في التعصب الوطني. على أن هذا

ليس معناه أن رداءة الطقس وحدها تولد العاطفة الوطنية. هكذا ترون يا أصدقائي أنه يستحيل على المرء في غضون شهرين ونصف شهر أن يدرس جميع الأشياء على نحو مناسب. فلا يمكنني إذن أن أمدكم بمعلومات دقيقة كل الدقة صحيحة كل الصحة. ولسوف أجدني مضطراً في بعض الأحيان إلى أن أكذب أيضاً...

ولكن ها أنتم تستوقفونني هنا قائلين: «لا حاجة بنا في هذه المرة إلى معلومات دقيقة صحيحة. ولو شئنا لوجدنا هذه المعلومات في «دليل راخارد». وإنما ينبغي لكل مسافر أن ينشد الصدق لا الحقيقة المطلقة، وذلك أمر يفوته في جميع الأحيان تقريباً. ينبغي له أن لا يخشى البوح بأي شيء عن مشاعره وانطباعاته ومغامراته، ولو كانت لا تجلب له مجداً كبيراً. ينبغي له أن لا يستشير بعض السلطات ليكون له عندها شأن ومنزلة. إن كل ما نرغب فيه هو أن تعبّر لنا عن مشاعرك وانطباعاتك شريطة أن تكون صادقة».

آ... أنتم تريدون إذاً ثرثرة لا أكثر، أنتم تطلبون لمحات سريعة، وانطباعات شخصية عابرة. فليكن لكم ما تشاءون. سوف أعود إلى دفترتي الذي دوّنت فيه بعض الملاحظات. ولكنني أرجوكم أن تتذكروا أن جزءاً كبيراً مما سأكتبه قد يشتمل على أخطاء. لا كل ما سأكتبه طبعاً. فمن المستحيل مثلاً أن يخطئ المرء في وقائع ثابتة مثل «نوتردام دو باري»، ومرقص «مابيل». وهذه الواقعة الأخيرة خاصة يشهد بها جميع الروس الذين كتبوا عن باريس، بحيث يكاد يستحيل وضعها موضع الشك. لعلي غير مخطئ في هذا. ومع ذلك لا أتحمّل تبعة كاملة صارمة. ذلك لأنه يقال أنه يستحيل على المرء أن يذهب إلى روما دون أن يرى كنيسة القديس بطرس. ومع ذلك فقد ذهبت أنا إلى لندن دون أن أرى كنيسة القديس بولس. يميناً إنني لم أرها! صحيح أن هناك فرقاً بين كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس ومع ذلك فإن إغفال رؤية كنيسة القديس بطرس ليست أقل بُعداً عن اللباقة من إغفال رؤية كنيسة القديس بولس.

تلكم هي مغامرتي الأولى التي تشرفني كثيراً. الحق أنني لمحتُ كنيسة القديس بولس من على مسافة نحو كيلومتر، أثناء ذهابي إلى بانتونفيل. ولكنني أغفلت زيارتها من فرط ما كنت فيه من عجلة.

ولكن... بالمناسبة!... اعلموا أنني لم أقتصر على الطواف السريع وعلى رؤية الأشياء كرؤية الطائر (ليس يعنى قولنا «كرؤية الطائر» رؤية «من فوق» فذلك اصطلاح من اصطلاحات هندسة العمارة كما تعلمون). لقد عشت في باريس شهراً كاملاً إلا ثمانية أيام قضيتها في لندن. فسأحدثكم إذاً عن باريس، لأنني رأيتها خيراً مما رأيت كاتدرائية القديس بولس، وخيراً مما رأيت سيدات درسدن. فهلّموا إذن إلى باريس.



الفصل الثاني

في القطار

«إن الفرنسي محروم من العقل، ولو أوتيت عقلًا لعد ذلك أكبر شقاء يصيبه». إن هذه الجملة قد كتبها منذ القرن الماضي فونفيزين (8). واللّه وحده يعلم كم كان فرحًا مرّحًا حين كتبها. إني لأراهن على أن قلبه كانت تدغدغه لذة كبيرة حين دبجت براعة هذه العبارة. ومن يدري؟ لعلنا جميعًا، بعد فونفيزين، خلال ثلاثة أجيال أو أربعة، لا نقرأ هذه العبارة إلا ونشعر بشيء من متعة. إن جميع الأقوال الطريفة التي من هذا النوع والتي يتهم فيها قائلوها على الأجانب ما تزال تشتمل حتى الآن، في نظرنا، نحن معشر الروس، على فتنة لا سبيل إلى مقاومتها، فتنة خفية طبعًا نشعر بها على غير علم منا في بعض الأحيان. إن في هذا نوعًا من الثأر لماضٍ مؤسف. ولئن كانت هذه العاطفة مؤسفة هي أيضًا فإنني لعلّى يقين من أنها قائمة في نفس كل واحد منا. صحيح أننا نظهر شيئًا من الاستياء والغضب إذا نحن وُصمنا بها، وأننا نفعل هذا صادقين مخلصين. ومع ذلك فأنا أعتقد أن بيلنسكي (9) نفسه كان بهذا المعنى من المتعصبين للسلافية في قرارة نفسه.

منذ خمسة عشر عامًا، أيام كنت أتردد إلى ندوة بيلنسكي، أذكر أن أفراد تلك الندوة جميعًا كانوا ينحنون احترامًا للغرب، أعني لفرنسا بوجه خاص، مع تقديس يبلغ حد الغرابة. كانت فرنسا أيامئذٍ على «الموضة»: وكان ذلك في عام 1846؛ كانوا لا يكتفون بعبادة أسماء جورج صاند وبرودون وغيرهما، ولا يكتفون باحترام أسماء لوي بلان ولودرو رولان وأمثالهما؛ بل كانوا كذلك يعظمون أشدّ التعظيم أشخاصًا لا قيمة لهم ولا شأن، أشخاصًا هم ثمار جافة يابسة، أشخاصًا لم يلبثوا أن انهاروا ولم يصمدوا منذ وُضِعوا في موضع الامتحان. فمن هؤلاء أيضًا كانوا ينتظرون أمورًا عظيمة في مرحلة الزندقة المتسمة بطابع النزعة الإنسانية الطالعة في ذلك الأوان. وكانوا يتهايمسون عن بعضهم فيما بينهم باحترام كبير... ثم ماذا؟ ثم لم ألتق خلال حياتي كلها برجل أشدّ اندفاعًا في تعلقه بروسيته مثل بيلنسكي، رغم أن تشايف (10) كان قد انفجر في كثير من الحقد والبراعة وفي كثير من العماوة أحيانًا، يشهر بكثير من خصائصنا القومية، ويحتقر في أغلب الظن كل ما هو روسي. إن هناك وقائع معينة وذكريات محددة تحملني على إصدار هذا الحكم وإطلاق هذا الرأي. ومن يدري؟ لعل الجملة التي قالها فونفيزين لم تصدم بيلنسكي نفسه كثيرًا في بعض الأحيان.

هناك لحظات لا يحب فيها المرء الوصاية ولا يرضى بها ولو كانت وصاية نبيلة مشروعة. أوه! لا تحسبوا أن محبة الإنسان وطنه تعني أن يحمل على الأجانب، وأني من هذا الرأي... يؤسفني أن الوقت لا يتسع لي الآن من أجل أن أفصح عما بنفسي بمزيد من الوضوح...

بالمناسبة: لعلكم ستظنون أنني بدلاً من أن أحدثكم عن باريس، أندفع في الكلام على الأدب الروسي، وأكتب مقالة في النقد، أليس كذلك؟ ولكن لا... وإنما حدث هذا

عرضاً...

وإذا رجعت إلى دفتر مذكراتي، وجدت أنني الآن في القطار، وإنني أستعد غداً لاجتياز الحدود في آيدتكونن (11)، أي أتهياً لمعاناة شعوري الأول بأنني في بلد أجنبي، وأن قلبي يرتعش في بعض اللحظات. أخيراً سأرى إذاً أوروبا، أنا الذي ظللت طوال أربعين عاماً على وجه التقريب، أحلم بها في غير طائل، منذ السادسة عشرة من عمري، أحلم بها جاداً كل الجد، مهتماً كل الاهتمام، مثل بيلوبياتكين (12) الذي أجرى نكرا سوف على لسانه هذا البيت من الشعر:

أحب أن أهرب إلى سويسرا.

دون أن أستطيع تحقيق هذا الحلم. ها أنا ذا إذاً في الطريق إلى «بلاد العجائب المقدسة»، التي طالما تنهدت تحرقاً إلى زيارتها، وظللت ثابتاً على إيماني بها.

إنني ليتفق لي أحياناً أن أتساءل حتى وأنا في هذا القطار نفسه: «أنحن روس حقاً يا رب؟ أنحن روس حقاً؟ لماذا تحدث فينا أوروبا هذه الفتنة كلها ولماذا تستهويننا هذا الاستهواء كله، أيأ كنا؟»، وحين أقول كلمة «نحن»، فلست أقصد أولئك الذين لبثوا هنالك فحسب، أولئك الروس البسطاء الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً، أولئك الروس الذين لا نعددهم نحن الذين يبلغ عددها مائة ألف، لا نعددهم حتى الآن شيئاً مذكوراً، وما تزال صحفنا الساخرة العميقة تستهزئ بهم وتتهكم عليهم، لأن هؤلاء الناس الطيبين لا يخلقون لحاهم. لا، فإنما أنا أتكلم عن صفوتنا الممتازة المرموقة! ذلك أن كل ما نملكه تقريباً من تطور في ميدان العلم والفن والحضارة والإنسانية إنما يأتيها من هناك، من «بلاد العجائب المقدسة»! ذلك أن حياتنا كلها، منذ نعومة أظفارنا، إنما تشكلت على النمط الأوروبي! كيف يمكن لأحد منا أن يقاوم هذا التأثير، وأن لا يستجيب لهذا النداء، وأن يصمد أمام هذا الضغط؟ كيف لم نتحول بعد إلى أوروبيين تماماً؟ أغلب ظني أن هناك أمراً يسلم به جميع الناس، بعضهم على فرح وابتهاج وبعضهم على أسف وحسرة، وهو أننا لم ننضج بعد النضج الذي يؤهلنا لهذا التحول. على أن هذه قضية أخرى. حسبي أن أقرر هذه الواقعة وهي أننا لم نتحول ذلك التحول رغم المؤثرات التي تبلغ هذا المبلغ من القوة التي لا سبيل إلى مقاومتها. إنني عاجز عن فهم هذا الأمر، وتعليل هذه الواقعة. ذلك أن مربيائنا وحاضناتنا ومرضعاتنا لسن هن اللواتي حلن بيننا وبين هذا التحول. إنه لمن المحزن والمضحك حقاً أن نقدر أننا ربما ما كان ليظهر فينا شاعرنا بوشكين لولا آرينا روديونوفنا (13)، مربية بوشكين! رب قائل يقول: هذا باطل! ولكن ما قولكم إذا لم يكن باطلاً في واقع الأمر! إن كثيراً من الأطفال الروس يُؤخذون الآن إلى فرنسا لتربيتهم. فما عسى يحدث لو أخذ إلى فرنسا بوشكين آخر تعوزه هنالك مربية مثل آرينا روديونوفنا، وتعوزه اللغة الروسية منذ المهد؟ ومع ذلك فأني روسي كان بوشكين! لقد استطاع هذا الشاعر الذي كان أبوه سيّداً من السادة، استطاع أن يدرك نفس بوجاتشيف (14) وأن ينفذ إلى روحه في عصر لم يكن فيه أحد قد نفذ إلى أي موضع. لقد استطاع هذا الارستقراطي أن يتحد بشخصية بيلكين (15). لقد استطاع بقوة فنه أن يفصل عن بيئته وأن يدينها جهاراً في قصته الشعرية «أوجنين» (16)

من وجهة النظر القومية. ذلك أنه كان نبياً وكان رائداً. هل يمكن حقاً أن يكون ثمة علاقة كيميائية بين فكر الإنسان وتراب الوطن، وأن يكون الانسلاخ عن تراب الوطن مستحيلاً، فما إن ينسلخ المرء عنه ويتحرر منه حتى يرتد إليه؟ الحقيقة أن عقيدة التعلق بالسلافية لم تهبط علينا من السماء. ورغم أن هذه العقيدة قد تجسدت بعد ذلك في الغرائب التي تعلق بها أهل موسكو، فإن أساس هذه العقيدة أوسع من الصيغة الموسكوفية. ولعل لها في بعض القلوب جذوراً أعمق كثيراً مما يتراءى لأول نظرة. وهذا يصدق على أهل موسكو أنفسهم. ما أصعب أن يفصح المرء عن نفسه افصاحاً واضحاً من أول وهلة ولو أمام نفسه! رب أجيال ثلاثة لا تكفي لتوضيح فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحياة والقوة، فإذا النهاية تختلف في بعض الأحيان اختلافاً تاماً عن البداية...

إن جميع هذه الأفكار الشاردة، التي كان الضجر والفراغ هما اللذان أوحيا إليّ ببعضها، قد لاحقتني وطاردتني رغم إرادتي وأنا في القطار على عتبة أوروبا... على المرء أن يكون صريحاً! إن الأشخاص الوحيديين الذين يفكرون في مثل هذه الموضوعات في بلادنا ما يزالون حتى الآن هم الأشخاص الذين لا عمل لهم! أه ما أشد الضجر والسأم اللذين يستوليان على الإنسان حين يكون في القطار عاطلاً عن العمل! إن هذا الفراغ يثير من الضجر والسأم في النفس مثل الذي تثيره منهما حياة الفراغ في بلادنا الطبية روسيا. فرغم أن المرء في القطار يُنقل ويُعتنى به ويدلّل بحيث لا يبقى له ما يشتهي ويتمناه، فإن هناك قلقاً يظل يلاحقه، لا شيء إلا لأنه لا يعمل شيئاً، ولأنه يُعتنى به كثيراً، ولأنه ليس عليه إلا أن ينتظر الوصول. يميناً لقد أوشكت أن أتمنى في بعض اللحظات أن أثب من القطار فأخذ أركض إلى جانبه قرب القاطرة! كنت أقول لنفسي: «ألا فليكن هذا أسوأ وأنكى، ألا فلا تعب لأنني لم أعود الركض، ألا فلاضل الطريق، ألا فلابذل جهداً لا فائدة منه ولا نفع فيه! ولكنني في مقابل ذلك سوف أسير بنفسي، سوف أسير بوسائلتي أنا، سوف أكون قد وجدت عملاً يشغلني... وإذا حدث صدام، فعلى الأقل لن أبقى مكتوف اليدين أدفع حياتي ثمناً لأخطاء غيري...».

لا يعلم إلا الله ما يخطر ببالك أحياناً في ساعات الفراغ...

وفي أثناء ذلك كان الليل يهبط. فأشعلت الأضواء. وكان أمامي شخصان متقدمان في السن من ملاكي الأطيان، لهما وجهان لطيفان محببان. كانا ذاهبين إلى معرض لندن (17) لقضاء بضعة أيام بعد أن تركا أسرتهما في المنزل. وعلى يميني كان يجلس رجل روسي هو موظف في مؤسسة تجارية بلندن منذ عشر سنين. لقد قضى خمسة عشر يوماً في سان بطرسبرج لقضاء بعض الأعمال، وكان يبدو عليه أنه تخلص من آلام الحنين إلى الوطن تخلصاً تاماً. وعلى يساري كان يجلس إنجليزي قح، أحمر اللون، مفروق الشعر على طريقة الإنجليز، رصين رصانة لا يهزها شيء. إنه طوال السفر لم يبادل أي واحد منا كلمة واحدة بأي لغة من اللغات. ولبت من أول النهار إلى آخره مكباً على القراءة في كتاب مطبوع بأحرف صغيرة دقيقة لا يطبعها إلا الإنجليز وحدهم، بل هم يطرونها ويثنون عليها. حتى إذا صارت الساعة إلى العاشرة خلع حذاه و انتعل خفين: أغلب الظن أنه يفعل ذلك طول حياته

ولا يريد أن يغير في القطار شيئاً من عاداته. وما لبث الجميع أن نعلوا وناملوا: إن طلقا الصفارة ولهثا القاطرة تحض على النوم. وأخذت أنا أفكر، فلا أدري كيف قادتنى تأملاتى إلى هذه الفكرة: «أن الفرنسى محروم من العقل»، وهى العبارة التى استهللت بها هذا الفصل.

ولكن هل تعلمون أننى أستهى كثيراً، بانتظار الوصول إلى باريس، أن أنقل إليكم الخواطر التى راودتنى فى القطار؟ نعم أستهى أن أنقل إليكم تلك الخواطر، هكذا، من قبيل الإنسانية. «لقد مللت كثيراً فى القطار، والآن جاء دوركم». ولما كان من الضرورى أن أراعى بقية القراء، فسأجمع تلك الخواطر كلها فى فصل مستقل أجعل عنوانه «أمور تافهة». لأن كان على الكاتب أن يدارى قراءه، فمن الممكن أن يفعل ذلك مع أصدقائه بمزيد من الفروسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

أمور نافلة تمامًا

الحق أن تلك الخواطر لم تكن أفكارًا بل كانت تأملات، كانت تصورات تجري على غير هدى، بل وكانت أحلام يقظة «في هذا الموضوع وفي ذاك، وفي غير موضوع أكثر الأحيان. رجعت أولاً إلى الماضي وفكرت في الرجل الذي أصدر ذلك الرأي المتعجل في عقل الفرنسيين، فكرت فيه فجأة بمناسبة رأيه هذا. لقد كان ذلك الرجل في زمانه من كبار اللبراليين، وقد ظل طوال حياته يرتدي رداءً على الزي الفرنسي، لا يعلم إلا الله لماذا، وكان يحمل باروداً، ويضع على جنبه سيفاً قاطعاً، ليبدل على أنه من سلالة فرسان (رغم أنه لم يكن في روسيا فرسان في يوم من الأيام)، وليدافع عن شرفه الشخصي في حجرة المدخل من منزل بوتيومكين. ومع ذلك فإنه ما إن وضع أنفه في الخارج حتى ندد بباريس باسم جميع نصوص التوراة، وحتى قرر أن «الفرنسي محروم من العقل ولو أوتي عقلاً لعد ذلك أكبر شقاء يصيبه». بالمناسبة: قد تظنون أنني ذكرت السيف القاطع ورداء المخمل من قبيل مؤاخذه فونفيزين، أليس كذلك؟ فلا يذهبن بكم الظن إلى هذا. إن فونفيزين لم يكن في وسعه أن يرتدي قفطاناً روسياً، فحتى في زماننا هذا هناك أشخاص أرادوا أن يكونوا روساً بل وأن يختلطوا.

وسيقول شخص آخر: «رحماك! ما هذا الذي تقصه علينا. لقد كان موضوع الحديث بارييس، فما انتقالك هذا إلى الكلام عن عقوبة الجلد؟ ما هي العلاقة بين الأمرين؟». وسيضيف ثالث قوله: «ثم إنك قد أعلنت أنك عرفت هذا كله منذ قليل، وأنت إنما قمت برحلتك في الصيف الماضي، فكيف ان أمكن أن يدور عليه تفكيرك حينذاك في القطار؟».

جوابي على هذا السؤال هو أن تلك مشكلة حقاً. ولكن اسمحوا لي: هذه ذكريات شتاء عن مشاعر صيف. لذلك تسالت إليها واندست فيها مشاعر شتاء. يضاف إلى هذا أنني، حين كان يقترب بي القطار من أيدتكونن، كنت أفكر - ما زلت أتذكر هذا - كنت أفكر في كل تراثنا القومي الذي أبرحه إلى أوروبا، فكان بعض أحلامي يدور على هذه الأمور. وكنت أفكر في هذا الموضوع بالذات: بأية طريقة أثرت فينا أوروبا في عصور مختلفة محاولة أن تفرض علينا حضارتها دائماً؟ إلى أي مدى تحضرنا؟ ما عدد الذين أصبحوا منا متحضرين؟ والآن أدرك أنا نفسي أن ذلك كله كان تافهاً. ثم إنني قد أنبأتكم من قبل أن هذا الفصل كله تافه لا لزوم له ولا حاجة إليه. بالمناسبة: إلى أين وصلت من حديثي؟ ها... نعم... كنت أتكلم عن الرداء على الزي الفرنسي!

طيب! إن أحد أولئك الذين كانوا يرتدون الرداء الفرنسي قد كتب حينذاك مسرحية «البريجادير». كانت هذه المسرحية في زمانها شيئاً رائعاً أحدث أثراً خارقاً: «مت يا دنيس، فلن تكتب شيئاً خيراً من هذا»، كذلك صاح يقول بوتيومكين (18) نفسه. لقد أخرج الجميع من خدرهم وكسلهم. تساءلت مواصلاً تأملي على ما يريد لي

خيالي: «هل يمكن أن يكون الناس منذ ذلك العصر قد سئموا القعود عن العمل، بالشعب، فلم يرددوا قفطاناً وإنما خاطوا لأنفسهم رداءً باليه يكاد يشبه الرداء الذي يلبسه على المسرح، في الأوبرات الروسية الشعبية، أبطال اسمهم أوسلاد، مأخوذون بحبيباتهم اللواتي يُسمين لودميلا ويضعن على رؤوسهن كوكوشنيك (19). لا، لا، إن الزي الفرنسي كان يفهمه الشعب في ذلك الزمان أكثر مما يفهم ذلك الرداء، فالشعب يقول: «هذا سيد من الأشراف فليس يُعقل أن يرتدى قفطاناً». وقد سمعت في الآونة الأخيرة عن أحد مالكي الأطيان أنه أراد أيضاً أن يتحد بالشعب، فارتدى أيضاً «اللباس الروسي» (20) ليحضر اجتماعات المجالس الإقليمية فكان الفلاحون حين يرونه يقول بعضهم لبعض: «ما مجيء هذا الرجل المتكرر إلينا؟». ذلك رجل من مالكي الأطيان لم يتحد بالشعب.

قال لي شخص آخر في ذات يوم: «لن أتنازل أي تنازل. سأخلق لحيتي عامداً وسأرتدي الرداء الأوروبي إذا لزم الأمر. سأصنع التشدد. سأكون السيد، سأكون بخيلاً حيسوباً، حتى لقد أعمد إلى الظلم والسلب والاعتصاب عند الاقتضاء. فيزدادون احتراماً لي. وإنما المهم، كما تعلم، أن يوحي المرء باحترامه دفعةً واحدة. قلت لنفسي: «لكنهم يستعدون لقتال أجنبي. ما هذه إلا نصيحة حرب».

وقال لي ثالث، وهو شخص محبب والحق يقال: «سوف أسجل نفسي في جمعية قروية، ولكن ما عسى يحدث إذا صدر من مجلس الجمعية حكم بتوقيع عقوبة الجلد عليّ؟».

أردت أن أجيبه قائلاً: «هب هذا حدث (ولكنني امتنعت عن الكلام جبنًا. لماذا نخشى أن نعبر عن آرائنا في بعض الأحيان) ... هب هذا حدث... هبهم جلدوه... فما قيمة ذلك؟ إن أمثال هذه الحوادث الأليمة يطلق عليها أساتذة فلسفة الفن وعلم الجمال اسم «عنصر الفاجعة أو المأساة في الحياة». ذلك كل شيء. فهل يجب على المرء، لهذا السبب وحده، أن يعيش منعزلاً عن جميع الناس؟ لا... وإنما ينبغي للمرء أن يعيش مع جميع البشر بغير استثناء أو أن يعتزل اعتزلاً كاملاً. إن نساء ضعيفات وأطفالاً صغاراً قد قاسوا في أمكنة أخرى أهواً أشد.

لو قلت لمحدثي ذلك الكلام لكان يمكن أن يصيح قائلاً: «.. رحماك! ما حديثك هذا عن النساء الضعيفات والأطفال الصغار! إن الجمعية يمكن أن تحكم عليّ بالجلد بدون تعقل، بدون سبب آخر غير توغل بقرة صغيرة في بستان شخص آخر، كأن الأمر قضية من قضايا الدولة!

«.. لا شك أن هذا سخف. القضية نفسها سخيفة، تبعث على النفور وتثير الاشمئزاز، حتى أن الحديث غير لائق. بارك الله فيهم ألا فليُضربوا جميعاً! أنا لا شأن لي بالأمر!».

ولكنني من جهتي أراهن بكل ما تريدون على أن هذا الرجل الذي يناقشني ويعارض آرائي ما كان ليتلقى جلدة واحدة حتى ولو أمكن أن يصدر ذلك الحكم عليه. لأن المجلس سيقول بلسان رئيسه: «سنفرض عليه غرامة مالية أيها الإخوة،

لأنه سيد من السادة النبلاء حتى في هذه الحالة؛ ولا كذلك نحن، فنحن أناس إن كان لنا قفا فمن أجل أن نجلد بالسوط»، كما نرى ذلك في كتاب شتدرين «صور من الأرياف» (21).

لا شك أن أحدًا سيصبح قائلًا عند قراءة هذا الكلام: «.. إنه رجعي التفكير! إنه من أنصار عقوبة الجلد!». أؤكد لكم أن أحدًا سيستخرج من كلامي أنني أنادي بعقوبة الجلد وأطريها وأثني عليها.

وضجروا من السير مربوطين بأزمة يقودهم بها غيرهم؟ لا أقصد الأزمة الفرنسية وحدها حينذاك، وأحرص على أن أضيف أننا بسبب طيب سريرتنا وسذاجة قلوبنا، شعب سريع التصديق إلى أبعد الحدود. مثال ذلك أن نكون جميعًا قاعدين عن العمل، فإذا خيل إلينا على حين فجأة أن أحدًا قد قال شيئًا أو فعل شيئًا، وأن فكرنا الشخصي ينكشف ويتجلى، وأن شاغلًا يعرض لنا وعملاً يمثل أماننا، اندفعنا واثبين وثبة رجل واحد، مقتنعين بأن الأمور ستسير وأن هذه هي البداية. تمر ذبابة فنحسبها فيلاً. ماذا تريدون؟ إن مرد ذلك إلى قلة الخبرة والتجربة بحكم الشباب، وإلى الجوع فوق ذلك. لقد بدأ هذا، على مقياس صغير طبعًا، من قبل «البريجادير»، وما يزال مستمرًا حتى هذه الساعة: وجدنا عملاً يشغلنا فأخذنا نصوت من فرط الحماسة. إن الصراخ الطويل والحماسة الشديدة هما الشيء الرئيسي عندنا. ولكننا بعد سنتين نتفرق ونتبعثر خافضي الرؤوس. ولكننا لا نكل أبدًا، ولو كان علينا أن نستأنف مائة مرة.

أما الأزمة الأخرى فقد كان هنالك في عهد فونفيزين ما يشبه الإجماع على احترامها وتقديسها، وكان الناس يجدون هذه الوصاية فاتنة أخاذة. صحيح أن الريائيين هم في أيامنا هذه أيضًا قلة ضئيلة. فإن حزبنا التقدمي كله متعلق أشد التعلق بهذه الأزمة الأجنبية. ولكن الإيمان بأية أزمة أيام ذاك قد بلغ من شدة الحماسة والامتداد أن المرء يُدهش كيف لم ننقل الجبال من أماكنها، وكيف أن روابي آلاون وذرى بارجولوفو وأطواد فالدي قد بقيت في مواضعها. صحيح أن شاعرًا من شعراء ذلك العصر قد قال (22):

يقف على الجبال فتتشق الجبال

ويرمي الأبراج بيده فتجتاز السحاب

ولكن ذلك لم يكن في أغلب الظن إلا مجازًا.

وبهذه المناسبة يا أصدقائي: لاحظوا أنني لا أتكلم إلا عن الأدب. فمن خلال الأدب إنما أريد أن أدرس الأثر الحسن الذي أحدثته أوروبا في وطننا شيئًا فشيئًا. حين يفكر المرء في الكتب التي كانت تطبع وتقرأ حين ذاك (قبل «مسرحية البريجادير» وفي زمانها)، فإنه لا يستطيع أن يحمي نفسه من شيء من الافتتان والزهو. إن عندنا الآن كاتبًا من أبرز الكتاب، هو زينة عصرنا، يسمى كوزما بروتوكوف (23). إن العيب الوحيد في هذا الكاتب هو تواضعه الذي لا سبيل إلى فهمه: إنه لم يطبع حتى الآن «أعماله الكاملة». لقد نشر هذا الكاتب، منذ بعض الوقت، في ركن

«المتنوعات» من مجلة «المعاصر» عملاً أدبيًا عنوانه «دفتر جدي». تصوروا ما عسى يكتبه هذا الجد الذي عاصر كاترين، وبلغ من العمر سبعين عامًا، وكان على جانب عظيم من السمنة والبدانة، وطاف العالم، وشهد استقبالات البلاط، وحارب في أوتشاكوف، فلما رجع إلى أراضيه بعد ذلك كله أخذ يستعرض ذكرياته! إن المادة لا بد أن تكون شائقة: ما أكثر الأشياء التي رآها كاتب ذلك الدفتر! فانظروا مع ذلك إلى نواذر كالنواذر التالية هي كل ما ضمه دفتره.

جواب فكه للفارس مونتبازون: في ذات يوم، بحضور الملك، اتجهت امرأة شابة جميلة جدًا، اتجهت بالكلام إلى الفارس مونتبازون فسألته: «قل لي يا سيدي: أيهما مرتبط بالآخر، أكلب بالذنب أم الذنب بالكلب؟»، فأجابها الفارس، وكان حاضر البديهة سريع الرد، أجابها قائلاً: «لا يحظر على أحد يا سيدتي أن يمسك الكلب من ذنبه أو من رأسه». وقد سرَّ الملك بهذه الإجابة سرورًا عظيمًا، فلم يفته أن يأمر لصاحبها بمكافأة.

قد تظنون أنني أضللكم مازحًا، وأن هذه خزعة من الخزعات، وأن شيئًا من هذا لم يحدث في يوم من الأيام! ولكنني أحلف لكم أنني أنا نفسي، في طفولتي، حين كان عمري عشر سنين، قد قرأت كتابًا من عهد كاترين، تروى فيه النادرة التالية، فحفظتها يومئذٍ على ظهر القلب من شدة افتتاني بها، ثم لم أنسها بعد ذلك قط.

جواب فكه للفارس رومان: تعرفون أن رائحة فم الفارس رومان كانت كريهة جدًا. ففي ذات مرة، بينما كان الأمير دي كوندنيه ينهض، قال الأمير للفارس: «ابتعد أيها الفارس، لأن رائحة فمك كريهة جدًا»، فسرعان ما أجابه الفارس بقوله: «هذه الرائحة ليست مني يا مولاي، بل منك أنت، لأنك نهضت».

تخلوا هذا المالك من مالكي الأطيان: إنه محارب قديم (وربما كان فاقداً أحد أعضائه) يختم حياته قرب امرأته العجوز، بين ذرية كبيرة العدد، وخدم أكبر عددًا من ذلك أيضًا؛ ويذهب في كل يوم من أيام السبت إلى حمامات البخار فيظل يتعرق إلى أن يغمي عليه. إنه، وقد وضع على عينيه نظارتين ضخمتين، يروي أمثال هذه النواذر متلذذاً، ويعدها حقيقة صافية، ويكاد يحسبها واجباً من واجبات الخدمة. وما كان أقوى الإيمان الساذج، السائد حين ذاك، بأن أمثال هذه الأقاصيص أو الأنباء الأوروبية لاثقة ومفيدة! «تعرفون أن رائحة فم الفارس رومان كانت كريهة جدًا...». من ذا الذي يعرف ذلك؟ في أي ركن بعيد من أركان إقليم تامبوف يهتم أحد بهذا؟ ولكن الرجل الطيب لم يعبأ بأسئلة تبلغ هذا المبلغ من التجرؤ والتجاسر. إنه يعتقد، مؤمناً إيمان الأطفال، بأن هذه «المجموعة من الأقوال الظرفية» معروفة في البلاط، وهذا حسبه! نعم، صحيح أننا كنا في ذلك العهد نتمثل أوروبا بسهولة، من الناحية المادية طبعاً. ولكن الأمور لم تكن تتم من الناحية الروحية بغير اللجوء إلى السياط. كان الناس يلبسون جوارب من حرير، ويضعون على رؤوسهم باروكات شعر، ويحملون على جنوبهم أسيفاً، فيصبحون أوروبيين بثمن بخس. ولكن لا شيء يكون في الواقع قد تغير: فإن أجدادنا، بعد أن يدعوا فارس رومان وشأنه (وكانوا لا يعرفون عنه إلا أن رائحة فمه كريهة)، أن يخلعوا نظاراتهم الضخمة، كانوا يسيئون معاملة خدمهم، ويسرفون في فرض سلطانهم على أهلهم، وإذا أبدى

الجار شيئاً من غلظة جروه إلى الإسطبل وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً، بينما هم يزحفون على بطونهم أمام من هم أعلى منهم شأنًا وأرفع مقامًا. وكان الفلاح نفسه يفضل هذا. كانوا لا يحتقرونه بمقدار ما يحتقرونه الآن، وكانوا لا يزدرون عاداته بمقدار ما يزدرونها الآن، كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفونه الآن، لم يكونوا أجانب عنه بمقدار ما هم أجانب عنه الآن. أما عن اصطناع التعالي والعظمة في معاملته، فكيف كان يمكن أن يفعل سيد من الأشراف غير ذلك؟ ألم يكن هذا دوره؟ لقد كان أولئك السادة أقرب إلى قلوب أبناء الشعب من سادة هذا الزمان؛ رغم أنهم كانوا يضربونهم حتى الموت، ذلك أنهم كانوا يشبهونهم أكثر مما يشبهونهم الآن. الخلاصة أن أولئك الملاً جميعاً كانوا أناساً بسطاء جفاة: كانوا لا يواربون، فهم يهبون، ويضربون، ويسرقون، وينذلون، في رقة وحنان، ويعيشون حياة هادئة رضية في:

إنحلال ساذج طيب السريرة (24)

بل إنني لأعتقد أن أولئك الأجداد الطيبين لم يكونوا سذجاً إلى ذلك الحد، حتى فيما يتعلق بأمثال رووان ومونتازون.

لعلهم كانوا في قرارة أنفسهم ربابين متمردين على جميع تلك التأثيرات الأوروبية الآتية من أعلى. فتلك الملابس التتكرية كلها، وتلك الأردية على الزي الفرنسي كلها، وتلك الأكمام والباروكات والسيوف، وتلك السيقان اليسرى المحبوسة في جوارب من حرير، وأولئك الجنود الذين يضعون على رؤوسهم شعراً مستعاراً ويضعون على أذيتهم مسماة على الطريقة الألمانية، ذلك كله إنما كان في رأيي خداعاً كبيراً ومكرًا ذليلاً حتى أن الشعب كان في بعض الأحيان يلاحظ ذلك ويفهمه. لا شك في أن المرء يمكن أن يكون مشاكساً ومخادعاً وبرجاديلاً مع بقائه مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فارس رووان هو «ألطف اللطف». ولكن ذلك لم يكن يزعج أحداً: فأمثال جفوزديلون يظلون يضربون كما كانوا يضربون، وفرسان رووان منا يكادون يُجلدون في الإسطبل من قبل بوتيومكين ومنافسيه، وأضراب مونتازون يسرقون الأحياء والأموات؛ والأيدي التي تزينها الأكمام والأقدام التي تلبس جوارب الحرير تظل تنزل اللطمات والركلات على الرقاب والكلى، وحاملو ألقاب الماركيز بيننا يهرعون خفافاً إلى استقبالات البلاط

مضحكين بأقفية رقابهم في شجاعة (25)

الخلاصة أن أوروبا تلك كلها قد تلاعت عندنا بسهولة مدهشة، ابتداءً من سان بطرسبرج المدينة العجيبة التي لها تاريخ هو أغرب من تاريخ أية مدينة على وجه الأرض.

ولكن الأمر الآن لم يبق كما كان، وقد انتصفت سان بطرسبرج لنفسها. ها نحن قد أصبحنا أوروبيين تماماً. الآن أصبح جفوزديلوف نفسه يبرهن على كياسة حين يكون عليه أن يضرب. إنه يراعي قواعد اللباقة، ويستحيل إلى «بورجوازي» فرنسي، ولن يلبث أن يؤيد بالنصوص ضرورة تجارة الرقيق، كما يفعل أمريكي من الولايات الجنوبية. والتأييد بالنصوص يهاجر الآن من الولايات المتحدة إلى

أوروبا. قلت لنفسى: «متى وصلت إلى هناك فسأرى الأمر بعينى. فليس الخبر كالعيان، وليس يتعلم الإنسان من الكتب ما يراه بعينه».

بالمناسبة: هناك كلمة أخيرة عن جفوزديلوف: لماذا يُسند فونفيزين أبرز جملة من جمل مسرحيته «البريجادير»، لماذا يُسند هذه الجملة لا إلى صوفيا الناطقة بلسان الميول النبيلة والنزعات الإنسانية، بل إلى تلك المرأة الغبية، زوجة البريجادير التي يرسم لها هو نفسه صورة تبلغ من الغباء والرجعية أن جميع الكلمات والسخافات التي تقولها تبدو كأنها ليست صادرة عنها بل عن شخص مختبئ وراءها؟ ومع ذلك نرى المؤلف، حين وجب قول الحقيقة، لا يكل أمر القيام بهذه المهمة إلى صوفيا بل إلى امرأة البريجادير هذه. لقد جعل من هذه المرأة لا امرأة غبية بلهاء، بل امرأة خبيثة شريرة. ومع ذلك يخشى بل يرى أن من المستحيل، من الناحية الفنية، أن تخرج عبارة كهذه العبارة من فم آنسة أحكمت تربيتها وتنشئتها، وأعتقد أن الأقرب إلى الطبيعة أن تتطرق هذه الجملة مخلوقة بلهاء. هذا أمر شائق جداً، لا لشيء إلا لأن هذا الكلام قد كتب بدون أية نية خاصة أو فكرة مبيتة، وإنما كتب ببراءة وسذاجة، بل ولعله كتب عن سهو وغفلة. تقول زوجة البريجادير لصوفيا:

«... كان في السرية الأولى من كتيبتنا نقيب اسمه جفوزديلوف. وكانت امرأته شابة ولطيفة. ففي بعض الأحيان، أثناء نوبة غضب، ولا سيما إذا سكر، كان يضربها ضرباً مبرحاً هل تصدقين يا عزيزتي؟ بلا أي سبب. طبعاً... ذلك أمر لا يعنيني، ولكننا كنا نبكي حين ننظر إليها».

صوفيا: «رحمك يا سيدتي، كفى عن رواية أمور تهين الإنسانية».

زوجة البريجادير: «أرأيت يا عزيزتي الطيبة؟ أنت لا تريدين أن تسمعي عن هذا الضرب المبرح سماعاً، فكيف كانت زوجة النقيب تحتمله عذاباً في جسمها؟».

هكذا ترى امرأة بسيطة تُفحم فتاة متحذقة رفيعة التربية رقيقة العاطفة. ذلك عند فونفيزين جواب سريع مدهش، وليس لديه ما هو أقرب منه إلى الصدق، وأدنى إلى الإنسانية... وأبعد عن التوقع. وما أكثر ما يوجد حتى الآن من هؤلاء التقدميين بين رسلنا المندفعين الذين تفتنهم عاطفتهم الرقيقة! ولكن أعجب ما في الأمر أن أمثال جفوزديلوف ما يزلون يضربون نساءهم، وربما كانوا يضربونهم بمزيد من الهمة والنشاط والحماسة أيضاً. يميناً إن هذا لهو الواقع! يُقال أن الناس في الماضي كانوا يمارسون هذه العادة من قبيل التذوق، من قبيل التعلق «فمن أحسن الحب أحسن القصاص»؛ حتى أن النساء، فيما يُقال، كان يُقلقهن ألا يُضربن: فما لم يكن ضرب لا يكون حب. ولكن ذلك كله فطري، بدائي، أولي».

ولكن هذا قد تطور أيضاً. إن جفوزديلوف يضرب الآن من باب التقيد بالمبدأ تقريباً، ولأنه غبي أيضاً، أي لأنه رجل من رجال العهد البائد يجهل العادات الجديدة. إن العادات الجديدة تتيح تدبر الأمر على نحو أفضل دون اللجوء إلى الضرب. وإذا كنت لا أفيض في الكلام على جفوزديلوف، فلأن الكتاب ما يزلون يكتبون عنه عبارات زاخرة بالعمق والروح الإنسانية، ويبلغون من ذلك حد إضجار الجمهور وبعث السأم والملل في نفوس الناس. ورغم جميع المقالات، فإن جفوزديلوف فيه

من الحيوية ما يكاد يجعله خالداً. نعم، إنه حي معافى، وثل شعبان. هو الآن تنقصه ذراع وساق؛ وهو، مثل الكابتن كوبتكين، «قد سفح دمه إن صح التعبير». ومنذ زمن طويل كفت زوجته عن أن تكون «شابة ولطيفة». لقد شاخت. إن وجهها الخاسف الشاحب تخذده التجاعيد ويغضنه الألم. ولكن يكفي أن يمرض زوجها الفظ حتى تلازمه فما تفارقه، وحتى تقضي ليالي طوالاً ساهرة لا يغمض لها جفن، وحتى تواسيه وتعزيه وتشد أزره وتسكب بسببه دموعاً ساخنة كاوية، وحتى تتاديه بقولها: يا فارسي اللطيف، يا صقري الساطع، يا قائدي الجميل»، صحيح أن هذا يصدم المرء من جهة. ولكن عاشت المرأة الروسية من جهة أخرى! ليس في عالمنا الروسي شيء أفضل من حبها، ليس فيه شيء أفضل من هذا الحب الزاخر برحمة لا نهاية لها ولا حدود. أليس هذا صحيحاً؟ لا سيما وأن جفوز ديلوف لا يضرب الآن زوجته دائماً قبل أن يشرب. فهو يراعي قواعد الكياسة، حتى لقد يقول لها في بعض الأحيان كلمة طيبة. لقد شعر في شيخوخته بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها. إنه حيسوب، إنه «بورجوازي»، وإذا اتفق أن كان ما يزال يضربها، فإنه لا يضربها إلا وهو سكران، أو حين يستبد به الضجر فتستيقظ فيه العادة القديمة. وهذا تقدم، تقدم يعزي المرء، شئتم أم أبيتم!...

نعم، نحن الآن معتزون تماماً، معتزون بأنفسنا. هل يضيرنا أن نتنظر حولنا فلا نرى أن كل شيء لامع كثيراً حتى الآن؟ إننا في مقابل ذلك نبلغ الكمال ومن التمدن والتحضر ومن كوننا أوروبيين أن الشعب يشعر بغثيان حين ينظر إلينا. إن الشعب ينظر إلينا الآن نظرتة إلى جانب، ولا يفهم شيئاً من أقوالنا، ومن كتبنا، ومن أفكارنا... وذلك كله تقدم. هو تقدم، شئتم أم أبيتم. ونحن الآن نحقر الشعب والمبادئ الشعبية احتقاراً يبلغ من العمق أننا نحس باشمئزاز لم يكن معروفاً قبل اليوم حتى في عهد أصحابنا مونتيازون ورووان. وذلك تقدم آخر. وفي مقابل هذا، ما أعظم ثقتنا التمدينية، وما أشد القطع والجزم والحسم في اجابتنا عن أخطر المسائل من فوق: «لا شعب ولا أرض. ما القومية إلا نظام معين من أنظمة الضرائب. النفس صفحة بيضاء، النفس شمع تستطيع أن تصنع منه على الفور إنساناً حقيقياً مقدوداً على غرار المثال الشامل. يكفي أن تستعمل ثمرات الحضارة الأوروبية والمدنية الأوروبية وأن تقرأ كتابين أو ثلاثة... وفي مقابل ذلك، ما أعظم هدوينا وما أعظم أبهتنا في هذا الهدوء! ذلك أننا لا نشك في شيء، فقد حللنا جميع المسائل. ما أشد ما شعرنا به من اكتفاء بالنفس هادئ حين جلدنا تورجنيف، مثلاً، الذي تجرأ أن يشك فينا، ولم يكتف بشخصياتنا ذات الفخامة والجلال، ورفض أن يتخذها مثلاً أعلى، وأراد أن يسعى إلى ما هو أفضل... إلى ما هو أفضل منا... يا رب السماء! هل على وجه الأرض كلها أناس أحسن منا وأبعد عن الخطأ وأكثر عصمة من الزلل؟ وقد أنبأه وقرّ عنه أيضاً بسبب شخصية بارازوف (26)، الإنسان القلق المغموم (دلالة على أنه ذو قلب كبير)، رغم كل نزعة العدمية. حتى لقد جلدنا تورجنيف بسبب شخصية المرأة كوكشينا (27)، هذه القملة التقدمية التي استخرجها تورجنيف من الواقع الروسي ليظهرنا عليها ويرينا إياها. ثم اتهمناه أيضاً بأنه يعادي تحرير المرأة. فهذا كله تقدم... هو تقدم، شئتم أم أبيتم! نحن الآن ننظر إلى الشعب من فوق، ونشعر بزهو كزهو عريف في الجيش، كزهو فارس

من الفرسان المرتزقة الذين يعملون في جيش بلاد أخرى ويحسبون أنهم يحملون إليها المدنية والحضارة. إنه لمنظر يسرُّ الإنسان أن يراه: نضع أيدينا على خواصرنا، ونلقي نظرة تحدٍ واستفزاز، ونمثل دور مصارعي الثيران ونقول باصقين: «ماذا تستطيع أن تعلمنا أيها الموجيك (الفلاح) الشعبي الأخرق؟ إن المعنى الرجعي ليس في حقيقة الأمر شيئاً آخر غير قاعدة الضرائب!». ألا أنه لا يحسن بنا أن نستسلم للأوهام!...

آ... بالمناسبة... لنفترض، لحظةً، يا أصدقائي، أنني قد ختمت رحلتي وأنني عدت إلى روسيا. دعوني أقص عليكم قصة صغيرة. في ذات مرة، هذا الشتاء، تناولتُ جريدة من الجرائد. إنها من أكثر الجرائد تقدمية. فإذا أنا أقع على خبر من موسكو. العنوان: «من بقايا الهمجية أيضاً»، (أو شيء من هذا القبيل. العنوان حي جداً على كل حال. يؤسفني أن الجريدة ليست تحت بصري). ففي ذلك المقال يروي أنه في صباح من أصباح الخريف وقعت الأنظار على عربة تركبها امرأة من الخاطبات، سكرى، تلبس ثياباً مزركشة، وتترزين بأشرطة ملونة، ويصدح صوتها بالغناء. والحوذي سكران أيضاً، يلبس هو الآخر ثياباً مزركشة، ويدندن أغنية. والحصان نفسه مزين مجمل كذلك. ولكنني لا أدري أهو سكران أم لا. أغلب الظن أنه سكران. والخطابة تحمل صرّة كانت ذاهبة لعرضها على أهل العروس بعد ليلة الزفاف، وكانت سعيدة بطبيعة الحال. ومعروف أن الصرّة تضم اللباس الخفيف الذي اعتاد الناس في الطبقات الشعبية الدنيا أن يظهروا عليه أهل العروس غداة الزفاف. وكان الناس يضحكون من منظر الخطابة: كان ذلك موضوع مزاح وتندر. والجريدة تستهجن هذه الهمجية الفظيعة وتستنكرها استنكاراً شديداً، وتعدّها «بقية من بقايا الماضي ما تزال موجودة رغم أنواع التقدم التي حققتها الحضارة»! لا أكتفكم يا سادتي أنني انفجرت ضاحكاً. لا يذهبن بكم الظن إلى أنني أدافع عن أكل لحم البشر، وعن اللباس الخفيف، وعن الحجب، وما إلى ذلك. فهذا كله شر، هذا كله ابتعاد عن الحشمة، هذا كله شذوذ غريب، على الطريقة السلافية... أنا أعرف هذه الحقيقة، أنا موافق على صدق رأيكم، رغم أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله كان يمارس بدون سوء نية، بل وكان يُمارس تكريماً للعروس وتمجيذاً لها، كان يُمارس بقلب سليم وبساطة تامة، لجهل الناس بأن هناك عادات أفضل، عادات أكرم وأليق، عادات أقرب إلى المدنية الأوروبية. لا، وإنما أنا ضحكت لشيء آخر. لقد تذكرت، على حين فجأة، سيداتنا ومتاجر النوفوته. صحيح أن سيداتنا المتمدّنات أصبحن لا يرسلن إلى أهلن ألبسة خفيفة. ولكن إذا أردن أن يوصين بثوب مثلاً، فما أبرع فنهن وما أكبر حذقهن في وضع شيء من القطن في مواضع معينة من ثوبهن الأوربي الفاتن! لماذا القطن؟ هو طبعاً للأناقة، للجمال، من أجل أن يظهرن... وليس هذا كل شيء. إن بناتهن، هذه المخلوقات البريئة اللواتي هنّ في السابعة عشرة من العمر، ما إن يتخرجن من المدرسة الثانوية، حتى يعرفن القطن أيضاً، وحتى يعرفن فائدته، ويعرفن أين يجب أن يوضع، ويعرفن الهدف الذي يستعمل هذا كله من أجله... قلت لنفسي وأنا أضحك: «هل هذا الاهتمام كله وهذا الاحتفال كله، وهذه العناية كلها بتدوير الجسم بالقطن، هل هذا كله أقرب إلى الطهر والأخلاق والعفة من ذلك

اللباس الشقي الذي يُرسل إلى الأهل على ثقة بريئة واقتناع ساذج بأن في هذا التصرف حشمة وأخلاقاً؟».

صدقوا، يا أصحابي، أنني لن استطرد استطراداً طويلاً لأبين أن هذه المدنية ليست هي التطور، بل وأنها في الأزمنة الأخيرة قد كانت في أوروبا عائقاً يعوق كل تطور بالسوط والسجن. لن أبين أن الناس لدينا يخلطون خلطاً فاحشاً بين هذه المدنية وبين قوانين التطور السليم الواقعي، وأن هذه المدنية قد أصبحت في الغرب نفسه مدانة منذ زمن طويل، وأن أصحاب الأملاك وحدهم هم أنصارها انقاداً لأموالهم، رغم أن جميع الناس هنالك يملكون أو يتوقعون إلى أن يملكوا. لا ولن أبين أن النفس الإنسانية ليست صفحة بيضاء أو عجيبة يمكن أن نشكل منها إنساناً نموذجاً، وأن ذلك يتطلب الطبيعة أولاً، والعلم ثانياً، ويتطلب بعد ذلك حياة مستقلة لا تعوقها عوائق، حياة قريبة من الأرض، ويتطلب إيمان الأمة بقواها القومية الخاصة. لا ولن أزعم أنني أجهل أن التقدميين بيننا (ولكن لا جميعهم بل بعضهم) لا يستحسنون وضع القطن في أثواب النساء وإنما هم يستهجنونه استهجانهم الحجب الخفيفة. لا... فإن كل ما أريد أن أقوله هو ما يلي: إن مقالة الجريدة لم تستنكر الحجب ولم تلعنها بلهجة بريئة، إنها لم تقتصر على أن تقول أن هذا همجية، وإنما كان واضحاً أنها تتدد بالهمجية الشعبية، القومية البدائية، التي تتنافى تنافياً فاضحاً مع الحضارة الأوروبية التي أخذت بها طبقاتنا الراقية. إن مقالة تلك الجريدة تتعطر وتنتظر بأنها تجهل أن النقاد العتاة أنفسهم ربما كانوا أسوأ ألف مرة، وأنا لم نزد على أن أحلنا محل بعض الأوهام والمخازي أو هاماً ومخازي أخرى أبشع وأردأ. كان لا يبدو أن المقالة تلاحظ ما لدينا نحن من أوهام سخيفة وعيوب مخزية كثيرة. لماذا ننظر إلى الشعب هذه النظرية المتعالية، لماذا ننظر إلى الشعب من فوق، واضعين أيدينا في خواصرنا على أوضاع مصارعي الثيران؟ إن ثقة المرء بأنه معصوم من الزلل وبأن تشهيره وتنديده ونقده أمور مشروعة، إن هذه الثقة فيها كثير من الفظاظة. ليست هذه الثقة إلا استخفافاً بالشعب وازدراءً له، أو هي أخيراً تعظيم أعمى ذليل للأشكال الأوروبية من المدنية، وفي ذلك فظاظة أدهى.

وفيم الإلحاح؟ إن المرء يلتقي كل يوم بألوف الوقائع المماثلة. فاعفروا لي أنني صدعت رؤوسكم بسرد هذه القصة القصيرة.

ثم إنني أتبه عن هدفي. نعم. ذلك ناشئ عن أنني قفرت من الأجداد إلى الأحفاد قفزاً مسرفاً في السرعة. وهناك فواصل. تذكروا تشاتسكي (28) ليس تشاتسكي سلفاً ماكراً على سذاجة، وليس خلفاً مغروراً يمثل دور مصارع الثيران منفصلاً عن كل ما عداه. إن تشاتسكي نموذج خاص جداً بروسيا الأوروبية، نموذج جذاب متحمس شقوق يدعو دائماً لروسيا الأوروبية، وللارض، ولكنه مع ذلك يسافر إلى أوروبا حين يريد أن يلتمس ملاذاً للعاطفة الجريحة المهانة.

هو، باختصار، نموذج لا فائدة منه البتة في هذه الأيام، ولكنه كان في الماضي مفيداً جداً. إنه رجل ينشئ عبارات ويدبج جملاً، يلقي أحاديث ويقول خطباً، ولكنه يفعل ذلك كله صادقاً مخلصاً، ويقلقه أنه لا فائدة منه ولا نفع له. إنه ينبعث في الجيل الجديد، ونحن نؤمن بالقوى الفنية، ونؤمن بأنه سيعود إلى الظهور قريباً، ولكنه لن

يعود عودة رجل شديد الحميا مندفع العاطفة، كما في حفلة فاموسوف الراقصة، وإنما سيعود عودة منتصر فخور قوي رقيق محب. وسيعترف عدا ذلك بأن ملاذ العاطفة الجريئة المهانة ليس في أوروبا، بل قد يكون تحت أنفه. سوف يجد مهمة يقوم بها، وسوف يشرع في تحقيق هذه المهمة. وبهذه المناسبة: أنا على يقين من أن عندنا الآن شيئاً آخر غير أولئك «السامودور» (29).

أنا واثق، أنا أدعي أن الإنسان الجديد قد وُلد... ولكننا سنتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى. وإنما أريد أن أقول كلمتين أخريين عن تشاتسكي. إن هناك نقطة واحدة تربكني وتحيرني. لقد كان تشاتسكي رجلاً على جانب عظيم من الذكاء. فكيف أمكن أن لا يجد مثل هذا الرجل عملاً يقوم به؟ ذلك أنه لا هو ولا أضرابه قد وجدوا عملاً يقومون به خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. تلك واقعة، ولا اعتراض على واقع. ولكن يخيل إلي أن في إمكاننا أن نطرح سؤالاً من باب حب الاطلاع. إنني لا أفهم أن لا يستطيع إنسان ذكي، في أي وقت من الأوقات، وأياً كانت الظروف، أن يجد عملاً يقوم به. يُقال إن هذه النقطة محل خلاف. ولكنني في قرارة قلبي لا أصدق هذا الكلام. إن الإنسان يملك الذكاء من أجل أن يبلغ ما يريد بلوغه. إذا كنت لا تستطيع أن تقطع فراسخ، فاقطع مائة خطوة على الأقل، فذلك يظل أفضل من أن لا تقطع شيئاً البتة، إن ذلك يقربك من الهدف. فإذا اصررت على أن تصل إلى الهدف بخطوة واحدة، لم يكن ذلك ذكاءً في رأيي، حتى ليتمكن أن يوصف بأنه وصولية. إن العمل لا يحلو لنا. إننا لم نتعود أن نسير خطوة خطوة. الأفضل عندنا أن نصل إلى الهدف بخطوة واحدة أو نصير إلى ما صار إليه ريجولوس. تلكم هي الوصولية في رأيي. على أن تشاتسكي قد أحسن صنعا حين انسحب إلى أوروبا. ولقد كان في وسعه أن ينتظر قليلاً وأن يمضي لا إلى الغرب بل إلى الشرق ولكن الناس في بلادنا يحبون الغرب، وهم جميعاً يمضون إلى الغرب متى اضطروا إلى التطرف. وأنا أيضاً أذهب إلى الغرب... «ولكن شأني شأن آخر». لقد رأيتهم جميعاً هناك. ليس يُحصى عددهم. وكأنهم جميعاً ينشدون «ملاذاً للعاطفة الجريئة المهانة». أو على الأقل ينشدون شيئاً ما. في أواني لاحق على أوان حفلة فاموسوف الراقصة، تكاثر جيل تشاتسكي من الجنسين في الغرب تكاثر كرملة البحر. وليس أمثال تشاتسكي بالوحيدة: لقد ترك الجميع موسكو إلى الغرب. ما أكثر أمثال ريبتلوف (30) هناك الآن، وما أكثر أمثال سكالوزوبوف، الذين تركوا الخدمة وأرسلوا إلى مدن المياه المعدنية باعتبارهم كسحاء! إن ناتاليا ومتريفنا وزوجها أعضاء دائمون هناك. وفي كل سنة تُنقل إلى هناك الكونتيسة خلستوفا. جميع هؤلاء السادة قد ضاقوا ذرعاً حتى بموسكو. مولتساليين وحده ليس موجوداً: لقد دبّر أمره بطريقة أخرى وبقي في مكانه، ناذراً نفسه للبلاد، للوطن... يستحيل عليك أن تقاربه الآن، إنه لن يرضى الآن أن يستقبل فاموسوف في حجرة المدخل من منزله: «هما جاران في الريف: والناس في المدينة لا تحييهما». إن مولتساليين منهمك في الأعمال، وقد وجد عمله. هو الآن في بطرسبرج... وقد نجح.. «إنه يعرف روسيا، وروسيا تعرفه» (31)، نعم، إنها تعرفه جيداً، وستظل تذكره زمناً طويلاً. حتى أنه في هذه الأيام أصبح لا يلتزم الصمت. بالعكس: إنه يتكلم بغير انقطاع. ما على الناس إلا أن يسحبوا السلم بعده.

ولكن حسبنا ما قلناه عنه. لقد ذكرت أنهم جميعًا ينشدون في أوروبا ملاذا يهدئ نفوسهم، ولقد أظن حقًا أن حالهم هناك أحسن. ولكن ما أشد القلق الذي يراه المرء في وجوههم!... يا لهم من نساء! ما أقوى الاضطراب الدائم المستمر في نفوسهم، وما أكثر ما يتحركون تحركًا مرضيًا مغمومًا مهمومًا!... ها أنت ذا تراهم يسرون ممسكين الدليل بأيديهم، ويسارعون في كل مدينة إلى مشاهدة طرائفها كأنهم يقومون بواجب، كأنهم ما يزالون في خدمة وطنهم. إنهم لا يُغفلون قصرًا ذا ثلاث نوافذ، ما دام مذكورًا في الدليل، ولا يغفلون دارًا من دور البلدية تذكر بمنزل عادي من منازل موسكو أو بطرسبرج. إنهم يقفون متأملين أمام لوحات روبنس التي تصوّر نساء عاريات، ويعدونها آلهة الجمال الثلاث في أساطير الإغريق، لأن الدليل يأمر بذلك. وهم يهرعون إلى مادونا سان سيكست ويلبثون أمامها على حالة انتظار مبهور: سيحدث شيء ما، سيخرج أحد من تحت البلاط فيبدد قلقهم الغامض وسأمهم الشديد. ثم ينصرفون مدهوشين من أن شيئًا من ذلك لم يحدث. إن حالتهم لا تشبه حالة الاستطلاع النافع الآلي، حالة السائحين الإنجليز الذين ينظرون في الدليل أكثر مما ينظرون إلى الطرائف، ولا يتوقعون شيئًا مدهشًا، وإنما هم يقتصرون على التأكد أن الشيء الذي يروونه موصوف في الدليل على هذا النحو حقًا، ويقتصرون على التأكد من علوه أو وزنه. لا.. إن استطلاعنا نحن استطلاع عجيب، استطلاع عصبي، حار، عنيف، عدا أنه مقتنع سلفًا بأنه لن يحدث شيء قط، إلى أن تمر ذبابة طبعًا، فمتى مرت ذبابة عاد يستيقظ... لست أتحدث الآن إلا عن الأشخاص الذين أوتوا فكرًا. أما الآخرون فلا داعي إلى الاهتمام بهم: أسأل الله أن يحمي الجميع. لا ولا أنا أتحدث عن أولئك الذين استقر بهم المقام في الغرب، فنسوا لغتهم، وأخذوا يصيخون بأسماعهم إلى أقوال الكهنة الكاثوليك.

مهما يكن من أمر، فإليكم ما يمكن أن يقال عن جملة الناس: إننا متى اجتزنا الحدود أصبحنا نشبه شبيهًا عجيبًا تلك الكلاب الصغيرة البائسة التي تركض باحثة عن أصحابها. ولكن لعلكم تحسبون أنني أسخر، وأنني أتهم أحدًا: «في هذه اللحظة، بينما... إلخ... فقد أصبحتم في الخارج! المشكلة الزراعية تُطرح، وأنتم الآن في الخارج! إلخ! إلخ!... لا، لا، لا، إنني... لا أتهم أحدًا البتة! ومن أنا حتى أتهم؟ أتهم بماذا وأتهم من؟» نكون سعداء لو عملنا شيئًا، ولكن لا يوجد شيء نعمله؛ وإذا وجد شيء فإنه يعمل بدوننا. الأماكن مشغولة، ولا أمل في شغور أماكن. فعلام نحشر أنوفنا حيث لا يُطلب منا ذلك؟». ذلكم هو الانهزام. وكفى الآن. إننا نعرف هذا الانهزام على ظهر القلب.

ولكن أراني أندفع وأتحمس! أين اتسع وقتي لأن أرى لأن أرى روسيين في الخارج؟ ذلك أننا ما زلنا على الحدود... اللهم إلا أن نكون قد اجتزناها؟ نعم اجتزناها حتى لقد تجاوزنا برلين ودرسدن وكولونيا. الحق أنني ما زلت في القطار. ولكن أمامنا محطة أيدتكونن، وإركولين، ثم ندخل فرنسا. وباريس، باريس التي كنت أريد الكلام عنها ثم نسيتها؟ لقد أسرفت في التأمل في أوروبا الروسية. هذا شيء يغتفر للمرء حين يكون ذاهبًا بنفسه لزيارة أوروبا الحقيقية. ولكن علام الاستغفار؟ إن هذا الفصل الذي كتبته زائد نافل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

أمور غير نافلة بالنسبة إلى مسافرين

حل نهائي لهذا السؤال: «هل الفرنسي محروم من العقل حقاً؟»

ساءلت نفسي قائلاً وأنا أنظر إلى أربعة مسافرين فرنسيين ركبوا القطار منذ قليل: «غريب... لماذا يكون الفرنسي محروم من العقل؟». إن هؤلاء المسافرين الذي ركبوا القطار منذ هنيهة هم أوائل من لقيت من الفرنسيين على أرض وطنهم، عدا رجال الجمر ك الذين تركناهم منذ قليل في أركولين. لقد كان رجال الجمر ك لطافاً مهذبين جداً، برهنوا على سرعة في إنجاز العمل، وقد عدت أركب القطار مسروراً كل السرور ببداياتي في فرنسا. حتى محطة أركولين، لم تكن حجرتنا بالقطار، وهي حجرة تتسع لثمانية أشخاص، لم تكن تضم إلا اثنين هما أنا ورجل سويسري، بسيط متواضع، متوسط السن، محدث بارع لم أنقطع عن الترتة معه خلال ساعتين. وما قد أصبحنا الآن ستة، فما كان أشد دهشتي حين رأيت صاحبي السويسري يصمت فجأة حين ركب الرفاق الجدد، فأصبح لا ينطق بكلمة. أردت أن استأنف حديثنا السابق، ولكنه أسرع يقطع الحديث محاذراً، وأجابني إجابة من يريد التهرب من الكلام، وذلك بلهجة جافة توشك أن تكون خشنة، ثم إلتفت نحو النافذة يتأمل منظر الطبيعة. وما هي إلا دقيقة حتى أخرج من جيبه دليله الألماني فاستغرق في قراءته. فتركته وشأنه، وانصرفت باهتمامي صامتاً إلى رفاقنا الجدد. إنهم أناس يثيرون الاستغراب. كانت أيديهم فارغة، فهم لا يشبهون المسافرين في شيء. ليس معهم صرة واحدة وليس في ملابسهم ما يدل أيسر دلالة على أنهم سائحون. كانوا جميعاً يرتدون رندجونات مهترئة رثة كالتى نراها على أتباع الضباط من الجنود أو حتى على خدم سادة من الريف، ولكنها أفضل منها قليلاً. وكانت قمصانهم وسخة، وكذلك كرافتاتهم ذات الألوان الصارخة. وكانت تحيط بعنق واحد منهم بقية منديل حبري من تلك المناديل التي لا تُترك قط فتتشرب رطلاً من الدهن بعد التصاقها بجسم صاحبها مدة خمسة عشر عاماً. وكان لكمي هذا الشخص نفسه زراً من زائف الماس بحجم بندقية. على أن وضعهم جميعاً كان فيه شيء من غطرسة. وهم يظهرون في سن واحدة - حوالي خمسة وثلاثين عاماً - كما أنهم يتشابهون كثيراً رغم اختلاف وجوههم، فكل منهم مشدود السحنة، ولكل منهم لحية صغيرة تحت الشفة السفلى. إن المرء يلاحظ أن هؤلاء الناس قد عانوا أحوالاً متقلبة كثيرة، فاكتمسوا إلى الأبد هيئة جادة لكنها شرسة. وقد بدا لي أيضاً أنهم يعرف بعضهم بعضاً، ولكني لا أتذكر أنهم تبادلوا كلمة واحدة! وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظوننا أنا والسويسري، وإنما هم ينظرون من خلال النافذة بإصرار متصل، ويصفرون في أثناء ذلك بإهمال وقلة اكتراث. أشعلت سيجارة، وأخذت أنعم النظر فيهم وأتساءل: «أي نوع من الناس يمكن أن يكون هؤلاء؟ لا هم عمال ولا هم بورجوازيون. أتراهم عسكريين محالين على التقاعد، أو شيئاً من هذا القبيل؟. على أن أمرهم لم يكن يعنيني كثيراً. وما هي إلا عشر دقائق حتى نزلوا واحداً بعد آخر في أول محطة تالية.

وأغلق الباب واستأنف القطار سيره! ان الوقفات قصيرة جدًا على هذا الخط، لا
تدوم إلا دقيقتين أو ثلاث دقائق في أكثر تقدير. والقطار يجري بسرعة رائعة حقًا.

وما إن صرنا وحيدين حتى أسرع السويسري يطوي كتابه ويضعه جانبًا، ويرمقني
بنظرة ارتياح وقد ظهر عليه أنه يرغب في استئناف الحديث.

قلت وأنا أتأمله مستطلعًا:

- لم يبق هؤلاء السادة مدة طويلة.

فقال:

- ليست المسافة التي يجب عليهم أن يقطعوها طويلة: من محطة إلى المحطة التي
تليها.

- أنت تعرفهم؟

- هم؟ إنهم من رجال الشرطة...

فسألته مدهوشًا:

- كيف؟ من رجال الشرطة؟ أية شرطة؟

- لاحظتُ فعلًا منذ قليل أنك لم تحزر ذلك.

سألته وأنا ما أزال أرفض أن أصدقه:

- أيمن أن يكونوا جواسيس حقًا؟

- نعم. ومن أجلنا إنما ركبوا القطار.

- أنت واثق من ذلك؟

- لا يخالجنني في هذا أدنى شك. سبق أن قطعت هذه المسافة مرارًا. وقد أشير لهم
إلينا في الجمر ك أثناء النظر في جوازات السفر، وذكرت لهم أسماؤنا، إلخ.. فركبوا
ليرافقونا.

- ولكن فيم يرافقوننا وقد رأونا وانتهى الأمر. ألم تقل أنهم قد أشير لهم إلينا
فلاحظونا؟.

- نعم، وذكرت لهم أسماؤنا. ولكن ذلك لا يكفي. وهم الآن قد دققوا النظر فينا
تفصيلًا: الوجه، الملابس، حقيبة السفر، مظهرنا كله. لقد لاحظوا حتى أزرار
أكمامنا. وأنت قد أخرجت علبة سجائرك، فلم يفتهم أن يلاحظوها. الخلاصة... لقد
لاحظوا وسجلوا في ذاكرتهم أكبر عدد ممكن من التفاصيل. فمتى اتفق أن تهت في
باريس أو غيرت اسمك (إذا كنت مشبوهًا) ساعدت هذه التفاصيل إلى الاهتداء إليك
أو القبض عليك. لقد أرسلت هذه التفاصيل برقيًا إلى باريس. وهناك يُحتفظ بها
للطوارئ. هذا إلى أن أصحاب الفنادق مجبرون على أن يسجلوا أدق الصفات
الخاصة، المتصلة بالأجانب الذين ينزلون فنادقهم.

سألته مرة أخرى وأنا ما أزال ذاهلاً بعض الدهول:

- ولكن لماذا كان عددهم أربعة؟

- أوه! إنهم هنا كثير! لعل عدد الأجانب في هذه المرة لم يكن كبيراً، فلولا ذلك لتوزعوا على عربات القطار.

- ولكن لاحظ أنهم لم يتأملونا البتة، وإنما كانوا ينظرون إلى الخارج من خلال النافذة.

- لا تخف... لقد دققوا في كل شيء... ومن أجلنا إنما ركبوا القطار.

قلت أحدث نفسي: «هـى هـىء! ويقولون «أن الفرنسي محروم من العقل!». إنني لأخجل أن أعترف بذلك. لقد نظرت إلى السويسري خلصة وأنا في شك من أمره:

«ألا يمكن أن تكون متواطئاً معهم يا رفيق، ألا يمكن أن يكون غرضك تضليلي؟»، ذلك ما خطر ببالي، ولكنه لم يخطر ببالي إلا لحظة قصيرة، أؤكد لكم. وكان هذا الخاطر سخيلاً غير معقول. ولكن ما حيلتي؟ إن المرء يفكر رغماً عنه.

لم يخدعني السويسري. ففي الفندق الذي نزلته سرعان ما سُجِّلت صفاتي تفصيلاً، ثم أرسلت إلى من يجب إرسالها إليه. وفي وسعك أن تستنتج من شدة التدقيق في ملاحظة صفاتك بغية تسجيلها، أن حياتك كلها في الفندق بعد ذلك، وسائر ما ستقوم به من أعمال وما ستخطوه من خطوات مهما يكن يسيراً، سوف يُلاحظ وسوف يسجل على نحو دقيق. على أنني لم أضايق كثيراً في أول فندق نزلته، فقد سُجِّلت صفاتي دون أن أقول كلمة واحدة، عدا الإجابات الخطية عن الأسئلة التي يتضمنها دفتر السجل، وقد دَوَّنتها بنفسى: الهوية، البلد الذي وصلت منه، هدف الرحلة، إلخ.. ولكن، في الفندق الثاني الذي نزلته بعد ثمانية أيام قضيتها بإنجلترا، حين لم أجد غرفة في «فندق كوكبير»، عمد صاحباً الفندق إلى طريقة أصرح كثيراً. كان هذا الفندق الثاني يسمى «فندق الأباطرة»، ويتصف جوه بأنه عائلي من جميع النواحي. كان صاحبه إنسانين طيبين حقاً، وهما رجل وزوجته متقدمان في السن، يفيضان لطفاً وذوقاً في معاملة نزلاء الفندق، ففي المساء من يوم وصولي رجيتي صاحبة الفندق، حين لقيتني في الدهليز، أن أدخل إلى المكتب. وكان زوجها هناك. ولكن كان واضحاً أنها هي التي تتولى إدارة الفندق.

بدأت تقول بلطف وأدب:

- معذرة يا سيدي، ولكن لا بد لنا من تسجيل بيان عنك.

قلت:

- البيان عندكم... فقد أعطيتكم جواز سفري.

- نعم، ولكن... ما هي صفتك؟

صفتي؟ هذا أمر غامض طالما ساعني. ولكن ما عساي أكتب؟ مسافر؟ إن كلمة مسافر تعوزها الدقة... أكتب كلمة «أديب»؟ إنهم لن يقيموا لي عندئذٍ أي وزن، ولن

يولوني أي اعتبار.

قالت صاحبة الفندق:

- أوثر لك أن تكتب أنك «مالك أطيان»، ما رأيك؟ هذا أفضل.

فقال زوجها مؤيدًا ومحبذًا:

- نعم نعم، هذا أفضل.

- والآن ما هي الغاية من مجيئك إلى باريس؟

- السياحة طبعًا!

- هم... نعم... «مشاهدة باريس». اسمح لي يا سيدي. ما طول قامتك؟

- طول قامتي؟

- كم طولك؟

- أنا متوسط الطول كما ترى؟

طبعًا يا سيدي، ولكنني أريد أن أعرف طولك على نحو أدق..

كذلك قالت السيدة، ثم أضافت مرتبكة بعض الارتباك وهي تسأل زوجها بنظرتها:

- أظن...

فقال زوجها حاسمًا وقد حدّد طولي بالنظر:

- أظن أن طولك «كذا وكذا».

سألت:

- ولكن ما حاجتكم إلى معرفة هذا؟

فأجابت السيدة:

- أوه! هذا ضرر... و... ري!

قالت ذلك مشددة على هذه الكلمة بينما هي تسجل طول قامتي في الدفتر. ثم سألتني:

- والآن يا سيدي، شعرك؟ هو أشقر، أميل إلى أن يكون فاتحًا... مقصوص كالفرشاة...

وسجلت أوصاف الشعر. ثم تابعت تقول وهي تضع القلم وتتهض وتقترب مني في تودد ولطف:

- اسمح لي يا سيدي... هل لك أن تسير معي خطوتين نحو النافذة. يجب أن أفحص الآن لون عينيك. هم... هما فاتحتان!...

وسألت زوجها بنظراتها. كان واضحًا أنهما يحب كل منهما الآخر.

قال الرجل بلهجة جادة:

- أميل الى تكونا شهابوتين.

- صحيح.

وبغمة من عينيه دلّ زوجته على شيء فوق حاجبيّ، فأدركت فوراً ما يقصد. إن في جبيني ندبة، وهو يريد أن تسجل امرأته هذه العلامة الفارقة.

قلت للسيدة بعد أن انتهى فحصي:

- اسمحي لي بسؤال يا سيدتي: هل صحيح أنهم يطلبون منكم هذا التدقيق كله؟

قالت:

- أوه! يا سيدي! هذا «ضرر... و... ري»

وقال زوجها بعدها كأن كلامه رجع الصدى، قال بلهجة ذات دلالة:

- سيدي!...

قلت:

- ولكني لم أسأل في فندق «كوكبير»، أيّ سؤال.

قالت السيدة بحماسة:

- مستحيل، وإلا نالهم من ذلك أذى. لعلهم فحصوك صامتين، ولكنهم فحصوك حتماً ما في ذلك ريب. أما نحن فنعامل نزلاء فندقنا معاملةً أصرح، نعاملهم معاملة أقرباء. سنسرّ منّا. سوف ترى...

قال الرجل مؤيداً في أبهة:

- أوه! سيدي!...

وعبر وجهه عن رقة توشك أن تكون عاطفة حنان.

إنهما زوجان شريفان جدّاً، لطيفان جدّاً، على الأقل إذا صدق ما عرفتة فيهما بعد ذلك. غير أن كلمة «ضرر... و... ري» لم تُلفظ بلهجة فيها اعتذار أو فيها تلطيف. بالعكس: لقد كانت تحمل معنى الضرورة المطلقة وتوشك أن تطابق قناعتها الشخصية.

إنّ، ها أنا ذا في باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

بعل

ها أنا ذا إذن في باريس!... لا تحسبوا مع ذلك أنني سأحدثكم كثيرًا عن هذه المدينة. ذلك أنني أفدّر أنكم قد شبعتم قراءة عنها باللغة الروسية. ثم إنكم قد ذهبتم إليها بأنفسكم، فلا شك أنكم لاحظتموها خيرًا مما لاحظتها أنا. فأنا في الخارج لا أطيق أن أقوم بزيارة المدينة التي أزورها مستهدينًا بالدليل، كمسافر ملزم بواجب. لهذا أغفل في بعض الأماكن أشياء من المخجل أن لا أراها وهذا ما حدث لي بباريس. لن أحدثكم عن شيء من ذلك، ولكن اعلموا أنني وجدت لمدينة باريس تعريفًا، وأنني زينتها بنعت ما أزال أعتقد به: إنها أكثر مدن الأرض تجملاً بالأخلاق والفضيلة. يا له من نظام! يا لها من حكمة! يا لها من علاقات محدّدة وطيدة! إن كل شيء في باريس مضمون ومرتب سلفًا. إن كل الناس فيها مسرورون سعداء كل السعادة، حتى لقد انتهى بهم الأمر، من حسن نيّتهم وصدق عزيمتهم، إلى الاقتناع بأنهم كذلك حقًا... وهم مكتفون بهذا مقتصرون عليه لا يريدون شيئًا عداه. أنتم لا تريدون أن تصدقوا أنهم مكتفون بذلك مقتصرون عليه. أنتم تزعمون أنني أبالغ، وأن ما أقوله هو من باب التشنيع الحاق الذي يدفع إليه التعصب الوطني، ولا يمكن أن يكون صحيحًا. ولكنني نبهتكم منذ البداية، يا أصدقائي، إلى أنني قد أكذب فأسرف في الكذب. فلا تنزعجوا إذن. ولعلكم تعلمون أيضًا أنني إذا كذبت فليس ينفي ذلك اقتناعي بأنني لا أكذب. وحسبي هذا الكلام!.. واركبوا ذراعَي طليقتين فلا تغلّوهما.

نعم، باريس مدينة مذهشة. ويا له من ترف! ويا لها من أنواع الرخاء التي يتمتع بها أولئك الذين يحق لهم أن يتمتعوا بها! ومرة أخرى، يا له من نظام! يا له من ركود في النظام إن صح التعبير! إنني أعود دائمًا إلى الكلام على النظام، على الترتيب. حقًا، إن باريس لن قلبت أن تصبح مدينة جامعية ألمانية صغيرة، متجمدة على الهدوء والسكينة، كمدينة هايدلبرج مثلاً. إنها تجنح نحو هذا، وتتجه إليه. ألا يمكن أن توجد هايدلبرج أخرى ضخمة الأبعاد! ويا لها من أنظمة! افهموا عني: أنا لا أتكلّم الآن عن أنظمة خارجية، وهي يسيرة (نسبيًا بطبيعة الحال)، وإنما أتكلّم عن ذلك التنظيم الضخم، الداخلي، المعنوي، الذي يصدر عن النفس، عن الروح. إن باريس تتضيق وتقل، طواعية، عن حب: إنها تتقلص بعاطفة، بحنان. ما أكبر الفرق بينها وبين لندن مثلاً!

لم أقض في لندن إلا ثمانية أيام؛ فيا لها من لوحات واسعة ذات بروز، يا لها من مستويات مضيئة أصيلة واضحة، تلك التي انحفرت ذكراها في نفسي! إن كل شيء في لندن ضخم، إن كل شيء فيها حاد قاطع في أصالته! حتى لقد يخطئ ظن المرء في هذه الأصالة. إن كل نقيض، مهما يكن بارزًا، يتلاءم في لندن مع نقيضه، فإذا النقيضان ينسجمان في عناد، ويتناقضان دون أن ينفي أحدهما الآخر. يبدو أن كل نقيض يؤكد وجوده الخاص بإصرار، دون أن يلوح أن أحد النقيضين يضايق الآخر أو يزعه. ومع ذلك ففي لندن أيضًا يتلاحق ذلك الصراع العارم نفسه، ذلك الصراع القوي الذي أصبح منذ الآن متأصلًا قديمًا، أعني الصراع المستमित بين

المبدأ الفردي الذي يشترك فيه الغرب كله وبين ضرورة التلاؤم كيفما اتفق، أعني ضرورة قيام أي جماعة متماسكة على أي نحو من الأنحاء، وانتظام المجموع في مجتمع يشبه أن يكون بيوت النمل، بل والتحول إلى مجتمع نمل، ولكن على شرط طبعاً، هو شرط أن يلتهم الأعضاء بعضهم بعضاً، وإلا أصبحوا من أكلة لحوم البشر! على أننا هذه الناحية نلاحظ نفس ما نلاحظه في باريس. نلاحظ ذلك الجهد المستميت نفسه في سبيل الاكتفاء بالحالة الراهنة والاقتصار عليها، واستئصال المرء من جميع الرغبات وجميع الآمال، وأن يلعن مستقبله الذي ربما كان رؤود التقدم أنفسهم لا يؤمنون به كثيراً، وأن يُعبد «بعل». ومع ذلك لا تدعوا لهذا الأسلوب الرفيع أن يفتنكم: إن هذا كله لا يُلاحظ على حالة الوعي إلا لدى التقدميين الواعين. ولكن المرء يلاحظه على حالة اللاوعي، على حالة اللاشعور، على الحالة الغريزية، في الوظائف الحياتية لدى الجمهور بأجمعه. فالبورجوازي الباريسي مثلاً يكاد يكون مقتنعاً اقتناعاً واعياً بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن كل شيء في هذا العالم على خير ما يرام، حتى لقد يضربك إذا أنت شككت في ذلك، لأنه رغم ثقته ما تزال تراوده مخاوف. ولئن كان الأمر على هذا النحو في لندن، فما أكبر الفرق رغم كل شيء: يا لها من لوحات واسعة، مرهقة، هنالك! ما أكبر الفرق، حتى من ناحية المظهر الخارجي، بين باريس ولندن، هذه المدينة المنهمكة نهاراً وليلاً، الواسعة كالبحر، الضجة التي لا تنقطع، وقرقعة الآلات المستمرة، وهذه السكك الحديدية التي تمر فوق المنازل (وتحت المنازل قريباً)، وهذه المبادرة الجريئة الجسور، وهذه الفوضى الظاهرية التي هي في حقيقة الأمر النظام البورجوازي وقد بلغ أوجه، وهذا النهر المتسمم، نهر التاميز، وهذا الهواء المشبع بالفحم، وهذه الميادين والحدائق الرائعة، وهذه الأحياء الكالحة، كحيّ هوايتشابل وسكانه أنصاف العراة الشرسين المشاغبين، و «المدينة»، بملايينها وتجاريتها الشاملة، و «قصر الكريستال» و «المعرض»!...

نعم، إن «المعرض» فخم. تحسّون أن قوة رهيبة قد جمعت هنا ذلك الجمهور الذي لا يحصى عدده، والذي جاء من جميع أنحاء العالم فالتقى قطيعاً واحداً. تشعرون بأن نتيجة قد تحققت، تشعرون بالانتصار، بالظفر. حتى قد تأخذون تخافون لا أدري من أي شيء! مهما تملكوا من الاستقلال، فإن الخوف يجتاح نفوسكم! أليس هذا هو بلوغ المثل الأعلى حقاً، أليس هو النهاية والخاتمة؟ أليس هذا هو «القطيع الواحد» في الواقع؟ ألا يجب على المرء أن يسلم بهذا على أنه الحقيقة الكلية، وأن يصمت إلى الأبد؟ إن ذلك كله ليبلغ من الفخامة والجلال والأبهة والافتخار والانتصار أنكم تأخذون تشعرون بفكركم مضغوطاً مثقلاً. تنظرون إلى هذه المئات من الألوف، إلى هذه الملايين من البشر الذين جاءت بهم إلى هذا المكان من جميع أركان العالم فكرة وحيدة، فازدحموا فيه هادئين عنيدتين صامتين في هذا القصر الفخم، فتشعرون عندئذ أن شيئاً ما قد تحقق تحققاً نهائياً. هذه لوحة من التوراة، هذه صورة من بابل، هذه نبوءة رؤيا يوحنا تتحقق أمام أبصارنا. تشعرون أنكم في حاجة إلى قدرة هائلة على المقاومة والإنكار والنفي حتى لا تخضعوا، حتى لا تستسلموا لذلك الشعور، حتى لا تتحنوا أمام الواقع وتعبدوا «بعل»، أي حتى لا تحسبوا أن هذا الواقع هو المثل الأعلى...

قد تقولون لي: «ولكن هذا الكلام سخف؛ إنه ثمرة المرض، إنه نتيجة تعب الأعصاب، إنه ناشئ عن الغلو والمبالغة. ما من أحد يتوقف على هذا، وما من أحد يعده مثلاً أعلى. ثم إن الجوع والعبودية ليس فيهما ما يجذب، وهما يحضنان أكثر من أي شيء آخر على الإنكار والجحود، ويولدان الشك والريب. أما الهواة الشبعون الذين ينتزهون نشداناً للمتعة، ففي وسعهم طبعاً أن يؤلفوا لوحات من رؤيا يوحنا، وأن يفرّجوا عن أنفسهم وأن يسلوا أعصابهم مضخمين كل حادثة من الحوادث، باحثين فيها عما يثير في نفوسهم احساسات قوية...».

سوف أجيبكم عندئذٍ قائلاً: «طيب. لنسلم بأنني قد فُتنت بالديكور. ولكن لو رأيتم زهو الفكر القوي الذي خلق هذا الديكور الضخم الفخم، لو رأيتم ثقته واعتزازه بانتصاره وظفره، لارتجفت من غطرسته ومن عناده ومن عماوته، ولارتعشت إشفاقاً على أولئك الذين يحلق فوقهم ويسيطر عليهم ويتحكم فيهم هذا الفكر المتعالي المتكبر. فأمام هذا الصلف الواسع الكبير، أمام هذا الفكر المتسلط، أمام هذا الانتصار الحاسم الذي تحقّقه إبداعاته، تنهوى النفس الساعية أحياناً، وتنزل، وتخضع، وتتشد الخلاص والسلامة في خمرة «الجين»، وفي الدعارة والفحش والمجون، وتأخذ تؤمن بأن هذه الحالة مشروعة. إن الظاهرة واضحة، فالجمهور يصاب بالشلل ويصبح عاطلاً عن الحركة، أو هو، إذا خضع للريبة، ينشد الخلاص والسلامة في مذهب كالمورمونية، متجهم الروح كالح النفس قد ضربت عليه اللعنة. وفي لندن يستطيع المرء أن يلاحظ الجمهور بحجومٍ وبيئةٍ لا توجد في أي مكان آخر.

قليل لي مثلاً أن نصف مليون من العمال والعاملات مع أولادهم ينتشرون في أرجاء المدينة كلها، أيام السبت مساءً، كبحر متلاطم الأمواج؛ وهم يؤثرون أن يتجمعوا في بعض الأحياء خاصةً يحتفلون فيها بعيد السبت حتى الساعة الخامسة من الصباح، أي يفرطون في الأكل والسكر كالبهائم لسائر الأسبوع. هكذا يبدد هذا الجمهور مدخراته التي حصّلها خلال أيام طويلة بعمل شاق وجهد كبير. إن دكاكين الجزارين وحوانيت الأطعمة والمأكّل التي تسطح فيها أنوار الغاز تسكب في الشوارع أمواجاً من ضياء. كأن المرء يشهد حفلة رقص أقيمت لهؤلاء الزنوج البيض. الشعب يتزاحم في الحانات، وفي الشوارع. الناس يأكلون ويشربون حيث يوجدون. محلات شرب البيرة مزدانة كأنها قصور. الحشد سكران، ولكن سكره خالٍ من الفرح والمرح. إنه متجهم، ثقيل، صامتٌ صمتاً عجيّباً غريباً. ولا ينقطع هذا الصمت المريب إلا من حين إلى حين، تقطعه شتائم ولكمات دامية تملأ نفسك حزناً. إن الجميع يسرعون إلى السكر حتى يفقدوا الوعي. والنساء لا يتخلفن في هذا عن أزواجهن، بل يسكرن معهم. والأولاد يركضون ويسعون بين أهلهم هنا وهناك: في ليلة كهذه الليلة، في الساعة الثانية من الصباح، ضللت طريقي، فضربت في الشوارع زمناً طويلاً بين هذه الجمهرة التي لا يحصى عددها من الشعب المتجهم العابس، سائلاً عن الطريق بالإشارات تقريباً، لأنني لا أعرف من اللغة الإنجليزية كلمة واحدة، واهتديت إلى طريقي، غير أن الشعور الذي خلفه في نفسي ما رأيته من مشاهد ظل يلاحقني طوال أيام ثلاثة. الشعب واحد طبعاً في كل مكان، ولكن

اللوحة هنا تبلغ من الفخامة والشدة أنك تشعر أنك كنت في الماضي تتخيل تخيلاً لا أكثر. أنت هنا لا ترى حتى الشعب، وإنما ترى الخيال المطرد المنتظم المذعن المشجّع. وأنت تشعر حين تتأمل هؤلاء المنبوزين أنه سيمضي زمن طويل قبل أن تتحقق النبوءة بالنسبة إليهم، وأنه سينقضي زمن طويل أيضاً قبل أن يعطيهم أحد لا أغصان نخيل ولا ثياباً بيضاء، وأنهم إلى أن يحين ذلك الحين سيظلون يبتهلون إلى عرش الرب قائلين: «إلى متى أيها الرب؟» (32) هم أنفسهم يعرفون هذا، فهم بانتظار ذلك ينتقمون من المجتمع بالانتماء إلى ملل سرية: كملة المورمونيين، أو ملة الارتعاش أو غيرها من ملل الاشرار. إننا نندهش من هذه الغباوة في أن يصبح المرء ارتعاشياً أو إشراقياً، ولا يخطر ببالنا أن ذلك إنما هو رفض لصيغتنا الاجتماعية، رفض عنيد لا شعوري، رفض غريزي يهدف منه صاحبه إلى إنقاذ نفسه بأي ثمن، رفض يدخل فيه اشمئزاز منا وكره لنا. إن هذه الملايين من البشر المهجورين المطرودين من وليمة الحياة، يتزاحمون ويتصادمون في ظلمات الأقبية التي دفعهم إليها إخوتهم الكبار، فهم يقرعون بالتلمس باباً ما، ويبحثون عن مخرج ما، حتى لا يختنقوا في الكهف المظلم. هذه محاولة أخيرة بائسة مستميتة في سبيل أن يكونوا عصابة على حدة، في سبيل أن ينفصلوا عن كل شيء، ولو عن الشكل الإنساني، شريطة أن يعيشوا على ما يشاء لهم هواهم، وأن لا يكونوا معاً...

ورأيت في لندن جمهوراً آخر شبيهاً بهذه الحجوم. هذا ديكور آخر في نوعه. إن من زار إنجلترا قد ذهب إلى هايماركت مرة واحدة على الأقل. إن هايماركت هو الحي الذي تتجمع المومسات في بعض شوارعه ألوفاً. الشوارع مضاءة بمصابيح غاز، ليس لدينا فكرة عنها في بلادنا. وعند كل خطوة تخطوها تطالعك مقاهٍ رائعة تزدهن بمرايا كثيرة وأثاث مذهب، ففي هذه المقاهي يجتمع الناس وإليها يلجئون وبها يعتصمون. من الصعب على المرء أن يختلط بهذا الجمهور. إن تركيبه غريب. فيه نساء عجائز، وفيه صبايا ذوات جمال تقف أمامه مبهوراً. ليس في العالم كله نموذج امرأة يبلغ مبلغ جمال المرأة الإنجليزية. والجمهور المتراس يتجول بصعوبة ومشقة. الأرضية لا تكفيه فهو يغزو أرض الشارع. جميع هاته النساء يحرقهن ظمأ شديد إلى غنيمة، وهن يحاولن إغراء أول قادم بوقاحة واستهتار لا يصدهن عن ذلك أي خجل. الملابس الفاخرة والزينات الباهرة تجاورها ثياب تكاد تكون أسماً لرتة وخرقاً بالية. وهذا التناقض نفسه قائم بين الأعمار. كل شيء مختلط. إنك تجد في هذا الجمهور العجيب رجلاً متشرداً سكران، كما تجد فيه ثرياً من الأثرياء يحمل لقباً من أرفع الألقاب وتسمع شتائم ومشاجرات ونداءات، كما تسمع همساً يدعوك من فتاة ما تزال خجولة. وما أروع الجمال الذي يقع عليه بصرك في بعض الأحيان! لكان هذه الوجوه مستعارة من كتاب صور! أذكر أنني دخلت إلى كازينو. كانت الموسيقى تصدح، وكان الناس يرقصون. وكان هنالك حشد كبير. الديكور رائع فخم. ولكن الإنجليز يظلون عابسين حتى حين يلهون ويتسلون. إنهم يرقصون في جد، بل إنهم يرقصون في مثل التجهم، فكأنهم يحركون أقدامهم بالخطوات اللازمة قياماً بواجب. لاحظت في الشرفة فتاة، فإذا أنا أتجمد مذهولاً. لم أر في حياتي جمالاً أمثل من هذا الجمال. كانت جالسة إلى مائدة مع فتى يبدو أنه جنوناً ثري أكثر مما يبدو أنه واحد من الذين اعتادوا ارتياد الكازينو. أترأه يلتقي بها بعد

غياب طويل؟ أتراهما اتفقا على موعد للقاء في هذا المكان؟ كان لا يكلمها إلا قليلاً، وعلى نحو متقطع، فكان في رأس كل منهما مشاغل أخرى وهموماً أخرى. كانت هي أيضاً شديدة الحزن. إن قسماتها دقيقة وملامحها لطيفة. وإن نظرتها الرائعة التي فيها شيء من عزة وخيلاء تكتشف عن كآبة خفية، عن تفكير وقلق لا أدري ما هما! أغلب الظن أنها مصابة بالسل. لا بد أنها أعلى من هذه الجمهرة من النساء الشقيات. وإلا فعمَّ يمكن أن يعبر الوجه الإنساني؟ ومع ذلك كانت تشرب هنالك خمرة «الجين»، وقد دفع الفتى ثمن الخمرة. وأخيراً نهض الفتى فصافحها وافترق الإثنان. وخرج الفتى من الكازينو، أما هي فمضت تغيب في تلك الجمهرة من النساء الساعيات إلى المال، مضت تغيب بينهن وقد اصطبغ خداهما الشاحبان ببقع حمراء من تأثير الشراب.

وفي هايماركت رأيت أمهات يقدن بناتهن ليتاجرن بهن. صبيات في الثانية عشرة من أعمارهن يمسكن ذراعك ويسألنك أن تتبعهن. أذكر أنني رأيت في الجمهور بنيةً عمرها ست سنين في أكثر تقدير، بنية ترتدي أسماً ممزقة، وهي وسخة حافية القدمين شاحبة شحوب المرض محطمة. إن المرء يرى بقعاً زرقاً في جسمها من خلال أسماها الممزقة. كانت تسير كالغائبة عن نفسها، دون أن تحت خطاها، لا يدري إلا الله لماذا تسير بين هذا الحشد من الناس. أتراها كانت جائعة؟ لم يكن ينتبه إليها أحد. ولكن الشيء الذي خطف بصري أكثر من أي شيء آخر هو أن هيئتها كانت تدل على حزن عظيم وكرب شديد ويأس هائل لا يملك المرء حين يراه إلا أن يقول إنه لأمر شاذ مؤلم أن يقع بصر الإنسان على مخلوقة صغيرة أثقلت منذ الآن بكل هذا العذاب وأحاقت بها كل هذه اللعنة. كان تهز رأسها الأشعث كأنما لتناقش أحداً، وتباعد يديها الصغيرتين، وتحركهما بإشارات شتى ثم تصفق أحدهما بالأخرى وتشدهما إلى صدرها العاري. رجعت إلى الوراء وأعطيتها قطعة نقدية قدرها ستة بنسات، فتناولتها ونظرت إليّ محدقةً في عينيّ بدهشة خائفة، ثم ولت هاربة بخطى سريعة كأنها تخشى أن استرد منها المال. نعم، إن المرء ليرى هنا أموراً غريبة.

وفي مرة أخرى، استوقفتني ليلاً بين الضائعات والرجال الفجرة امرأة كانت تسير حثيثة الخطى بين الأمواج المضطربة من البشر. كانت ترتدي ثياباً سوداء، وعلى رأسها قبعة تكاد تخفي وجهها. لم أستطع كثيراً أن أتفرس فيها وأن أفحصها، ولست أتذكر إلا نظرتها الثابتة. قالت لي، بلغة فرنسية رديئة، لم أفهمها، ودست في يدي ورقة، ثم ابتعدت بسرعة. وقفت أمام واجهة مضاءة هي واجهة أحد المقاهي، ونظرت في الورقة: هي ورقة صغيرة مربعة طبعت على إحدى زواياها هذه الجملة: «هل تصدق هذا؟» وطبعت على ظهرها، باللغة الفرنسية أيضاً، هذه العبارة: «أنا البعث والحياة»... وبضعة أسطر أخرى من ذلك النص. لا بد لكم أن توافقوني على أن في هذا جدّة وغرابة. ولقد ذكر لي بعد ذلك في شرح هذا الأمر أن هذه هي الدعاية الكاثوليكية تنتسل إلى كل مكان مصرّة عنيدة لا تتعب. وفي الشارع توزّع تارة أوراق من هذا النوع، وتارة منشورات تضم مختارات من الإنجيل والتوراة. يوزعونها عليك مجاناً، يجبرونك على أخذها، يدسونها في يدك دساً.

والقائمون بأمر هذه الدعاية كثيرون من الجنسين، لا يُحصى عددهم!... وهذه الدعاية محسوبة بمهارة وبراعة. هذا كاهن كاثوليكي يكتشف بنفسه أسرة معوزة هي أسرة عامل من العمال، فإذا هو يتسلل إليها، فيجد بين أفرادها، مثلاً، مريضاً راقداً على حصيرة فوق الأرض الرطبة، تحيط به امرأة هي في أكثر الأحيان ثملة، وأولادٌ هذهم البرد والجوع. فيأخذ الكاهن الكاثوليكي يطعم الأسرة كلها ويكسوها ويدفئها، ويأخذ يعالج المريض ويشتري له الأدوية، ثم ينتهي بأن يدخل أفراد الأسرة في الديانة الكاثوليكية. على أنه يحدث في بعض الأحيان، بعد شفاء المريض، أن يطرد الكاهن بلجمات وشتائم. ولا يتعب الكاهن، ولا يكل ولا يمل، وإنما هو يمضي إلى أسرة أخرى وقد يطرد؟ ولكنه يحتمل كل شيء، ولا بد أن يظفر أخيراً بإدخال أحد في الكاثوليكية. ان الكاهن الانجليكاني لا يزور الفقراء. والفقراء لا يدخلون الكنيسة، لأنهم لا يملكون ما يدفعون به ثمن أماكنهم فيها. وارتباط الرجل بالمرأة كثيراً ما يكون في صفوف العمال وفي صفوف المعوزين بوجه عام، ارتباطاً غير شرعي، لأن الزواج يكلف نفقات باهظة. بالمناسبة: إن كثيراً من هؤلاء الأزواج يضربون نساءهم ضرباً رهيباً، وقد يصيبونهن من شدة الضرب بعاهات، والأداة التي يستعملونها في ضربهن هي مجرفة الحطب خاصة. هذه هي أداة الضرب عندهم. الجرائد على الأقل، في زاوية المشاجرات العائلية التي تقع فيها إصابات بالغة ويحدث فيها قتل، تذكر مجرفة الحطب هذه دائماً. أما أولاد هذه الأسر، فما إن يشبوا عن الطوق، حتى يمضوا إلى الشارع، ويختلطوا بالجمهور، ثم لا يعودون بعد ذلك إلى ذويهم قط.

إن الكهنة والأساقفة الانجليكانيين متكبرون وأغنياء. إنهم يعيشون حياة ثرية ويسمنون في هدوء كامل ودعة تامة. وهم أناس أدياء مثقفون جداً، مقتنعون اقتناعاً عميقاً بعلو مكانتهم وبحقهم في أن يعطوا بأخلاق وادعة مطمئنة، وبأن يسمنوا ويعيشوا للأغنياء. هذه ديانة الذين يملكون، هي كذلك صراحة بغير قناع. في هذا منطق وصراحة على الأقل. ولأساتذة الدين هؤلاء، المقتنعين إلى حد البلاهة، تسلية طريفة يزجون بها الوقت: ألا وهي الإرساليات أي البعثات الدينية. إنهم يجوبون الأرض، فيعثرون في آخر إفريقيا على فرد يدخلونه في دينهم، وينسون ملايين الهمج في لندن، لأن هؤلاء لا يملكون ما يدفعونه لهم. ولكن الإنجليز أغنياء، وعجول الذهب في هذه البلاد بوجه عام، متدينون إلى أقصى حدود التدين على طريقتهم الخاصة، العابسة المتجهمة. إن الشعراء الإنجليز يحبون منذ عهد بعيد أن يتغنوا ببيوت الكهنة في الريف، تظللها أشجار السنديان والدردار التي عمرها مئات الأعوام، وأن يمدحوا زوجات القسس وبناتهن الشقراوات ذوات العيون الزرق والجمال الأمثل.

ولكن ما إن ينقض الليل ويرجع النهار حتى ترى ذلك الفكر المتجهم المتكبر يسيطر على المدينة الواسعة سيطرة صارمة من جديد. فلا هو يتذكر ما جرى خلال الليل، ولا هو يرى ما يجري حوله أثناء النهار. إن «بعل» يحكم ولا يطلب حتى الخضوع، لأنه واثق منه سلفاً. إن ثقته بنفسه لا حدود لها. إنه بروحه المتكبرة المحترقة الباردة، يبذل صدقات منظمة لا شيء إلا أن يتخلص ويرتاح. حتى إذا

بذل تلك الصدقات لم يكن في إمكان أي شيء أن يززع طمأنينته. إن «بعل» لا يخبئ بعيداً عنه، كما يحدث في باريس مثلاً، بعض المظاهر الغريبة المريبة المخيفة من الحياة. فلا فقر الجمهور ولا عذابه ولا دمدماته ولا تخبله، لا شيء من هذا كله يعكر هدوءه أو يوقظ فيه قلقاً. إنه يسمح لهذه المظاهر المريبة المشؤمة أن توجد إلى جانبه، على يمينه ويساره، في وضح النهار يسمح لها بذلك في ازدراء واحتقار لا يحاول خائفاً كالباريسي، أن يوهم نفسه، وأن يعزي نفسه، وأن يزعم لنفسه أن كل شيء يجري على ما يرام. هو لا يخبئ الفقراء، كما في باريس، مخافة أن يعكر الفقراء صفو نومه وأن يقلقوه. الباريسي يحب كالنعامة أن يخفي رأسه في الرمل حتى لا يرى الصيادين الذين يهتمون أن يدركوه. في باريس... ولكنني لست بباريس الآن... ما هذا الخلط؟ متى يا رب أعتاد إلترام الترتيب والنظام فيما أقول من كلام؟ ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

بحث في البرجوازي

لماذا يتقلص هنا كل شيء، لماذا يريد الناس هنا أن يصغروا، أن يضيقوا أن يمحوا: «أنا لا وجود لي البتة، لقد اختبأت، اعبُر من فضلك، لا يبدو عليك أنك تلاحظني، مرؤوا، مرؤوا

- ولكن عمّن تتكلم؟ من الذي يتقلص ويتضيق؟

- البورجوازي طبعًا.

- رحماك! إن البورجوازي ملك، إنه كل شيء - «هو الدولة الثالثة»، هو كل شيء - أفتدعي بعد ذلك أنه يتقلص ويتضيق؟!

نعم، ولكن لماذا اختبأ في الأرض ذلك الاختباء تحت حكم الإمبراطور نابوليون؟ لماذا نسي، في مجلس النواب، ذلك الأسلوب الرفيع الذي كان يحبه في الماضي حبًا جمًا؟ لماذا لا يريد ألا يتذكر شيئًا، لماذا يهزُ كتفيه حين يذكره أحد بالزمان الماضي؟ لماذا يكشف فكره وتكشف نظراته وأقواله عن القلق فورًا متى تجرأ آخرون أن يتمنوا أمامه شيئًا من الأشياء؟ لماذا يرتعش، حين يطيش هو نفسه فيعرب عن رغبة ما، ثم يأخذ بالتقلص؟ «ما هذا الذي خطر ببالي يا رب؟». كذلك هو يتساءل، ثم يحاول بعدئذٍ عامدًا واعيًا، خلال مدة طويلة، أن يكفر عن سلوكه بحماسة وطاعته؟ لماذا تدل هيئته على أنه يقول: «اليوم سأتاجر قليلًا في دكاني، وغدًا، بمعونة الله، وربما بعد غد إذا وهب لي الله هذه النعمة...؛ المهم أن أجمع شيئًا من المال بأقصى سرعة!... ومن بعدي الطوفان»... لماذا يخفي جميع الفقراء في مكان ما ويؤكد أن ليس ثمة فقراء؟ لماذا يكتفي بالأدب الرسمي؟ لماذا يريد إلى هذا الحد أن يقتنع بأن جرائده طاهرة لا يمكن أن يداخلها الفساد؟ لماذا يقبل أن يعطي الجواسيس مالا كثيرًا، لماذا لا يجروا أن ينبس بحرف عن غزوة المكسيك؟ لماذا يمثل جميع عشاق الزوجات في صورة صعاليك لا يملكون منزلة ولا ينعمون بحماية، فهم بائعون في محلات تجارية، أو رسامون، وهم أناس مساكين فقراء على كل حال؟ لماذا يحلم بأن جميع الزوجات «وفيات» إلى أقصى حدود الوفاء، وبأن القدر ينضج طعامها على لهب الفضيلة، وبأن تصفيف الشعر هو أحسن مظهر يمكن تخيله؟ أما عن تصفيف الشعر فذلك أمر مفروغ منه، متفق عليه ضمناً. لقد تقرر من تلقاء نفسه. ورغم أن الشوارع الكبرى تجتازها في كل لحظة مركبات مسدلة الستائر، ورغم أن في كل مكان مأوى لجميع الملذات الأساسية، ورغم أن زينات «الحليلات» تكلف حتى في أحيان كثيرة نفقات تفوق الموارد التي يمكن أن يفترضها الأزواج، فإن ذلك قد صدر فيه قرار موقع، فماذا تريدون أكثر من هذا؟

ولكن لماذا كان الأمر على هذا النحو؟ كيف لا: لو لم يكن الأمر على هذا النحو فلربما ظن أن المثل الأعلى لم يتحقق، وأن باريس ليست الفردوس الأرضي تمامًا، وأنه ما يزال هنالك شيء ناقص يتمنى المرء تحقيقه، وأن البورجوازي نفسه ليس

راضياً كل الرضى إذن عن النظام الذي يدافع عنه ويفرضه على الجميع، وأن في المجتمع شقوقاً يجب إصلاحها وصدوعاً يجب رطبها. ذلكم هو السبب في أن البورجوازي يضع حبراً على ثقب حذائه حتى يلاحظها أحد، لا سمح الله! ولكن «الحليات» يشترين مرطبات لذيذة ويلبسن قفازات جميلة، بحيث أن السيدات الروسيات في بطرسبرج البعيدة يحسدنهن حسداً شديداً حتى لتصيبهن من ذلك الحسد نوبات عصبية. إن الحليات هنا يكشفن عن أفخذهن ويشمرن أثوابهن برشاقة في الشوارع الكبرى، فماذا تريدون أكثر من هذا لتحقيق السعادة الكاملة؟ ذلكم هو السبب في أن عنوان رواية كهذا العنوان «الزوجة والزوج وعشيق الزوجة» (33) أصبح مستحيلاً في الظروف الحالية، ذلك أن عشاق الزوجات لم يبق لهم وجود ولا يمكن أن يكون لهم وجود. وهبهم وجدوا في باريس بعدد حبات رمل البحر (ولعلمهم أكثر من ذلك عدداً)، فإنهم مع ذلك ليس لهم وجود، ولا يمكن أن يكون لهم وجود، لأن الفضيلة تسطع في كل مكان، ويجب أن يساهم كل شيء في سطوع الفضيلة. لو رأيت حديقة «الباليه رويال» في المساء حتى الساعة الحادية عشرة، فلا بد أن يرق قلبك وأن تشعر بعواطف الحنان إلى درجة ذرف الدموع. إنك تشاهد أزواجاً لا يحصى عددهم ينتزهون هنالك متأبطين أذرع حلياتهم. وأولادهم يلعبون من حولهم لعباً لطيفاً. ونوافير الماء تخرُ خريراً جميلاً وتدفقها الرتيب يحدث في النفس احساسات هادئة وادعة ساكنة متصلة، احساسات من نوع الاحساسات التي تستيقظ في نفسك بمدينة هايدلبرج. وليست هذه النافورة بالنافورة الوحيدة التي تخر مياهها خريراً جميلاً على هذا النحو في باريس: إن بباريس نوافير كثيرة، وفي كل مكان تطالعك هذه المناظر نفسها، فيبتهج قلبك.

إن الحاجة إلى الفضيلة هي في باريس حاجة لا تنطفئ ولا تخمد. والفرنسي الآن جاد رصين، بل إن عواطف الحنان تغزو قلبه في كثير من الأحيان. لذلك لا أفهم لماذا ما يزال يخشى شيئاً ما إلى هذا الحد من الخشية، رغم «المجد العسكري» الذي يزدهر في فرنسا ويكلف «جاك بونوم» نفقات باهظة إلى هذه الدرجة. والباريسي يحب الأعمال. ولكن كانه، حين يتاجر فيقشر جلدك في حانوته، لا يفعل ذلك في سبيل المنفعة وحدها، كما كان يحدث في الماضي، وإنما هو يفعل ذلك من أجل الفضيلة وباسم ضرورة مقدسة. إن جمع ثروة كبيرة وامتلاك أكبر عدد ممكن من الأشياء قد أصبح القانون الرئيسي للأخلاق، أصبح ديانة الباريسي. لئن صحَّ أن الأمر كان على هذا النحو دائماً، فلقد صار الآن مبدأ مقدساً. كان الناس في الماضي يحبون المال ويحبون أشياء أخرى غير المال، بحيث كان يستطيع إنسان محروم من الثراء أن يتوقع شيئاً من الإعتبار والاحترام. أما الآن فلا... فإذا شئت الآن أن يكون لك في نظر الناس اعتبار، فلا بد أن تجمع ثروة وأن تكسب أكبر عدد ممكن من الأشياء. وإلا لم يكن في وسعك أن تطمع في أن يحترمك الناس، بل ولم يكن في وسعك أن تطمع في أن تحترم نفسك أيضاً. إن الباريسي يعد نفسه أقل من «لا شيء» حين تكون جيوبه خالية، وذلك عن وعي دقيق واقتناع عميق. الناس يتسامحون معك تسامحاً مُدهشاً شريطة أن تملك مالا. ليس سقراط الفقير إلا رجلاً أبله وثرثاراً مفسداً، يُحترم على خشبة المسرح في أكثر تقدير، لأن البورجوازي ما يزال يحب أن يحترم الفضيلة على خشبة المسرح.

عجيب أمر هذا البورجوازي: ينادي بأن المال هو الفضيلة القصوى وهو واجب الإنسانية، ولكنه يظل مع ذلك يتظاهر بالعواطف النبيلة. إن لجميع الفرنسيين هيئةً نبيلةً نبلاً مدهشاً. في نفس اللحظة التي يعمد فيها أردأ فرنسي إلى أن يبيعك أباه بعشرين فلساً، مضيفاً إلى أبيه شيئاً آخر من تلقاء نفسه، تراه يظهر لك بمظهر يبلغ من النبل أنك تقف أمامه مكتوف الأيدي. ادخل إلى مخزن لتشتري بعض الأشياء: إن أصغر مستخدم يرهقك بنبلة الذي لا يوصف. وهؤلاء المستخدمون الذين يتخذون نموذجاً لممثلينا في «مسرح ميشيل». إنك تشعر أمام هذا المستخدم بأنك مذنب في حقه. لقد جئت لتشتري أشياء بعشرة فرنكات مثلاً، فإذا هو يستقبلك كما لو كان يستقبل اللورد دوفونشير. إنك تشعر عندئذ بعذاب حاد في ضميرك، وتود لو تسارع فتشرح له أنك لست اللورد دوفونشير، وإنما أنت مسافر بسيط جئت لتشتري أشياء بعشرة فرنكات. ولكن الشاب الرائع المظهر، الذي ينعم بنبل روي لا يوصف، والذي تصبح مستعداً أمامه لأن تحقر نفسك (من شدة نبلة!)، ولكن هذا الشاب يأخذ يعرض لك بضائع قيمتها عشرة آلاف فرنك. ففي مثل لمح البصر سرعة، تراه يراكم البضائع على البسطة لتراها. فإذا تصورت العناء الذي سيلقاه المسكين في إعادة طي هذه البضائع بعد انصرافك، العناء الذي سيلقاه جرانديزون أو ألسيبياد أو مونمورانسي، بعد انصرافك أنت، أنت الذي تجرأت رغم عقوق مظهرك وكثرة رذائلك وعيوبك، أن تزعج من أجل عشرة فرنكات حقيرة، سيداً عظيماً مثله، أقول إذا تصورت ما سيلقاه من عناء، أخذت، رغم إرادتك، تحقر نفسك أمام البسطة، وندمت على ما فعلت، ولعنت الحظ الذي جعل جيبك خالياً إلا من مائة فرنك. ولكن الشاب يلف لك البضاعة التي اشتريتها بمائتك الحقيرة، يلفها لفاً كريماً، ويغفر لك ما أحدثته في المخزن من اضطراب وازعاج، فإذا أنت تسارع إلى الخروج والغياب عن بصره. حتى إذا عدت إلى بيتك، ذهلت من أنك اشتريت بمائة فرنك بدلاً من عشرة. كم من مرة، وأنا أمر بالشوارع الكبرى أو بشارع فيفين، حيث توجد مخازن كبرى كثيرة لبيع الأقمشة والملابس، قلت بيني وبين نفسي: «لو أتيح للسيدات الروسيات أن يدخلن هنا وأن...» غير أن ما سيعقب ذلك إنما يعرفه ناظرو الأملاك وأصحاب الأطنان في أوريل وتامبوف حق المعرفة. إن الروسي يعشق أن يُظهر في المخازن أن لديه ما لا وفيراً. وهناك في مقابل ذلك برودة كبرودة الانجليزيات اللواتي لا يكفين أنهن لا يستحين من أن ينثر لهن أدونيس أو جيّوم ثل أصناف البضائع على البسطة، وأن يقلب لهن المخزن رأساً على عقب، بل يزدن على ذلك أن يأخذن يساو من في الأسعار، يا للهول!، في سبيل عشرة فرنكات. ولكن جيّوم ثل لا يقف مكتوف الأيدي، بل يثار لنفسه، فإذا هو يبيع الشال الذي سعره ألف وخمسمائة فرنك، إذا هو يبيعه للسيدة الانجليزية باثني عشر ألف فرنك، وهو يتم هذه الصفقة على نحو يجعلها تخرج من المخزن راضية مفتونة.

من ذلك فإن البورجوازي يحب النبل الهائل حباً شديداً. هو في المسرح يريد أن تعرض عليه شخصيات مبرأة من المنفعة. إن على جوستاف أن يسطع ببريق نبلة وحده، حتى لترى البورجوازي يذرف الدموع من فرط الحنان. وليس يمكنه، بدون هذا النبل، أن ينام هادي البال. إما أن يبيع باثني عشر ألف فرنك ما قيمته ألف

وخمسمائة، فذلك أمر ينبغي أن يعد حتى واجبًا: لقد فعله البورجوازي بدافع الفضيلة. إن السرقة فعل سيء مقزز، ترسل صاحبها إلى السجن. والبورجوازي، المتسامح في شئون كثيرة، لا يغفر لك أن تسرق، ولو كان عليك أن تموت جوعًا أنت وأولادك. أما إذا سرقت بدافع فإن لك عندئذ كل المغفرة. ذلك أنك تريد إذن أن «تجني ثروة» وأن تحصل على أشياء كثيرة، أي أنك تقوم بالواجب الذي تمليه الطبيعة والإنسانية. هذا هو السبب في أن القانون يميّز تمييزًا واضحًا كل الوضع بين السرقة التي تدفع إليها دوافع دنيئة، كأن تسرق في سبيل الحصول على قطعة خبز، وبين السرقة التي تنشأ عن فضيلة عليا - فهذه السرقة الأخيرة محمية، والناس يشجعونها، ولها نظام راسخ وطيد متين.

وأخيرًا - ها أنا ذا أعود إلى أسئلتي - لماذا يبدو على البورجوازي أنه ما يزال يخاف من شيء ما، كأنه لا يشعر براحة؟ من ذا الذي لعله يزعجه ويصدّع رأسه؟ أهم الذين ينمقون الكلام ويدبجون العبارات؟ ألا إنه ليرسل هؤلاء جميعًا إلى الشيطان بركلة من قدمه! هل حجج العقل المحض هي التي تصدع رأسه؟ ألا إن العقل قد انهزم أمام الواقع. ثم إن أعقل العقلاء وأعلم العلماء قد أخذوا هم أنفسهم يقولون أن العقل المحض لا وجود له، وأن المنطق المجرد لا ينطبق على الإنسانية، وأن هناك عقلًا لزيد وعقلًا لعمر و عقلًا لخالد (جان، ببيير، جوستاف)، أما العقل المحض فلم يوجد في يوم من الأيام، وأنه اختراع خطأ من اختراعات القرن الثامن عشر. من ذا يخافون؟ يخافون العمال؟ ألا إن العمال أيضًا هم جميعًا مالكون، في قرارة أنفسهم: إن مثلهم الأعلى الوحيد هو أن يصبحوا مالكين، هو أن يجمعوا أكبر مقدار ممكن. تلکم طبيعتهم، والطبيعة لا تكتسب بالمجان، وإنما هي ثمرة تطور وتربية على مدى قرون. إن أخلاق الأمة لا تتحول بسهولة. إن التخلص من العادات الموغلة في القدم، الداخلة في اللحم، المخالطة للدم، أمر صعب. يخافون إذن من المزارعين؟ ولكن المزارعين الفرنسيين مالكون كبار، إنهم أثقل المالكين، أي هم المثل الأعلى، هم أكمل وأحسن مثل أعلى يمكن تخيله. أهم يخافون من الشيوعيون؟ من الاشتراكين أخيرًا؟ ولكن هذا الحزب قد أصيب في زمانه بإخفاق كبير، والبورجوازي يحتقره في قرارة نفسه. هو يحتقره، ولكنه يخشاه في الوقت نفسه. نعم، ذلك هو الحزب الذي يخشاه البورجوازي حتى الآن. ولكن ما الذي يخشاه منه في حقيقة الأمر؟ ألم يتنبأ القس سيبس، في كتيبه الشهير، بأن البورجوازي سوف يصبح كل شيء؟ «ما الحالة الثالثة؟ لا شيء. ماذا يجب أن تكون؟ كل شيء». ولقد جاءت الأحداث مصدقة لما تنبأ به. إن أقواله هي، بين جميع الأقوال التي قيلت في ذلك العصر، الأقوال الوحيدة التي تحققت. وهي الأقوال الوحيدة التي بقيت.

ولكن البورجوازي ما يزال يشعر بشكوك، رغم أن كل ما قيل بعد سيبس قد أجهض وزال كفقاعات صابون. لقد نودى بعده مثلاً بهذا الشعار: الحرية، المساواة، الأخوة. عظيم! فما هي الحرية المقصودة؟ إن الحرية تساوي في نظر جميع الناس أن يفعلوا كل ما يحلو لهم، في حدود القانون. متى يستطيع المرء أن يفعل كل ما يحلو له؟ حين يملك مليونًا. هل تهب الحرية مليونًا لجميع الناس؟ لا، طبعًا! ما إنسان بدون مليون؟ إن الإنسان الذي لا يملك مليونًا ليس ذلك الذي يفعل كل ما يحلو له، وإنما هو

الإنسان الذي يُفعل به كل ما يراد. ماذا ينشأ عن ذلك؟ ينشأ ذلك أنه، عدا الحرية، هناك المساواة، أو قل لمزيد من الدقة والوضوح: هناك المساواة أمام القانون. وكل ما نستطيع أن نقوله هذه المساواة أمام القانون هو أن كل فرنسي، على النحو الذي تُطبَّق عليه المساواة الآن، يستطيع بل يجب عليه أن يعدها إهانة شخصية. ماذا بقي من الشعار؟ الأخوة. ولكن هذا البند هو أخص البنود، وعلينا أن نعتزف بأنه ما يزال يشكّل، في الغرب، حجر العثرة الكبرى.

إن الغربي يفهم الأخوة على أنها قوة كبيرة محركة للإنسانية، دون أن يخطر بباله أنه ليس بالمستطاع أخذها من أي مكان إذا هي لم توجد في الواقع. فما العمل؟ يجب خلق الأخوة مهما كلف الأمر.

ولكن خلق الأخوة مستحيل، فالأخوة تخلق نفسها بنفسها، توجد في الطبيعة، ويتم الحصول عليها في الطبيعة. ونحن نرى في الطبيعة الفرنسية، وفي الطبيعة الغربية على وجه العموم، أن الأخوة إنما يوجد في مكانها المبدأ الفردي، مبدأ تعزيز المحافظة على الذات، مبدأ النشاط الشخصي، مبدأ تقرير الفرد مصيره في «ذاته» الخاصة، مبدأ تعارض هذه الذات مع الطبيعة كلها والمجتمع كله من حيث هي عنصر مستقل متميز يساوي تمامًا ويعادل كل ما يوجد في خارجه. ولا يمكن أن تنشأ الأخوة عن تعارض كهذا التعارض. لماذا؟ لأنه في الأخوة، في الأخوة الحقة، ليست الشخصية المتميزة، ليست «الذات» هي التي أن تفرض حقها في المساواة وفي التعادل على كل «ما عداها»، بل إن «ما عداها»، هذا هو الذي ينبغي أن يجيء من تلقاء نفسه إلى هذه الشخصية المطالبة بحق، أن يجيء إلى هذه الذات المتميزة، فيعتزف لها، دون أن تطلب هي ذلك، بأنها مساوية ومعادلة في الحقوق له، أي لكل «ما عداها» مما هو موجود. وأكثر من ذلك أن هذه الشخصية التي تثور وتطالب ينبغي لها قبل كل شيء أن تضحي بكل ذاتها للمجتمع. لا يقتصر واجبها على أن لا تطالب بحقها، وإنما ينبغي لها أيضًا أن تتنازل عن هذا الحق للمجتمع بدون أي شرط. ولكن الشخصية الغربية لم تألف هذه الطريقة في التصرف: إنها تطالب في كثير من القوة والصرامة، تطالب بحقوقها، تطالب بالافتسام - وليس يؤدي هذا إلى الأخوة - صحيح أن الانبعاث الذي يغير النفوس ممكن. ولكن هذا الانبعاث يتطلب آلاف السنين، لأن هذه المعاني لا بد أن تنفذ إلى اللحم والدم قبل أن تصبح واقعًا. لعلكم قائلون لي: فهل يجب على الإنسان أن يكون مجردًا من الشخصية إذن حتى يكون سعيدًا؟ أهذا هو الخلاص؟ ولكنني أقول: بالعكس، فليس المطلوب أن يتجرد الإنسان من الشخصية، وإنما المطلوب نقيض هذا، المطلوب أن يصبح شخصية، وأن يصبح شخصية إلى درجة من الشدة تفوق الدرجة التي وصل إليها تكون الشخصية في الغرب الآن. ألا فافهموا عني حق الفهم: إن التضحية الإرادية، التضحية الواعية وعيًا تامًا، لا المفروضة فرضًا، هذه التضحية التي يضحي الإنسان فيها بوجوده كله في سبيل المجموع، هي التي تدل في رأيي على سمو الشخصية إلى الحد الأقصى، وعلى قوة الشخصية قوةً عليا، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الإنسان بنفسه وحرية إرادته. لأن يضحي المرء بحياته طوعًا في سبيل جميع الناس، لأن يصعد النل الذي نُصب عليه الصليب، لأن يعتلي كومة

الحطب التي سُحِرَق عليها، فذلك لا يكون ممكنًا إلا إذا كانت الشخصية قد نمت إلى أقصى درجة من النمو. إن الشخصية النامية نموًا قويًا، المقتنعة اقتناعًا كاملاً بحقها في الحياة، الشخصية التي لا تخاف على نفسها من شيء، لا يمكن أن تتذر ذاتها لشيء غير أن تهب نفسها للجميع، بغية أن يكون سائر الناس شخصيات مستقلة سعيدة مثلها. ذلكم هو قانون الطبيعة. إن الإنسان السوي محمول على هذا، مدفوع إليه. ومع ذلك فَرَبُّ شعرة ضئيلة، ربُّ شعرة ضئيلة جدًا تخرب الآلة إذا اندست فيها. سأشرح ما أريد أن أقوله: إنه لمؤذٍ جدًا في هذه المناسبة أن يجري المرء أقل حساب في سبيل الحصول على منفعة شخصية. مثال: هبني أذر نفسي للمجتمع وأضحى بنفسى في سبيل المجتمع. إن هذه التضحية يجب أن تكون كاملة، وأن تكون حاسمة، يجب ألا يخالطها أي تفكير في فائدة، يجب ألا أقدر أن المجتمع سيكافئني على ذلك بأن يضع نفسه تحت تصرفي. يجب على المرء أن يضحي بنفسه تضحية تامة دون أي أمل في ثواب، ودون أن يدفع أحد فداءً. فكيف السبيل إلى هذا؟ إن ذلك يذكر بقصة الدب الأبيض الذي يحاول المرء أن لا يتذكره قط.

فلو حاولتم، على سبيل التجربة، نسبان هذا الحيوان لرأيتم أن الملعون ما ينفك يوافي ذاكرتكم في كل لحظة. فماذا نفعل إذن؟ إن من المستحيل أن نفعل هذا الأمر، وإنما «ينبغي لهذا الأمر أن يُفعل من تلقاء ذاته، وأن يكون موجودًا في الطبيعة»، منقوشًا نقشًا لا شعوريًا في نفس أمة بأسرها، أي يجب باختصار أن يوجد مبدأ أخوة، أن يوجد مبدأ حب: يجب أن نحب. يجب أن نصبو بالغريزة والفطرة إلى الأخوة، وإلى المشاركة الجماعية، وإلى الوفاق، رغم الآلام التي عانتها الأمة قرونًا طويلة، ورغم الغلظة الهمجية المتأصلة، والجهل الشديد الراسخ، رغم العبودية القديمة والغزوات الأجنبية. وبعبارة واحدة: يجب أن تكون الحاجة إلى الصلة الأخوية فطرية في الإنسان، أو مكتسبة منذ الأزل. فما عسى تكون هذه الأخوة إذا نحن أردنا أن نترجمها إلى لغة معقولة واعية؟ إنما تكون هذه الأخوة في أن تأتي كل شخصية متميزة، أن تأتي إلى المجتمع بدون أي إكراه وبدون أية منفعة لها، فنقول لهذا المجتمع: «إن الاتحاد وحده يصنع قوتنا، فخذني كلي إذا كنت في حاجة إليّ، ولا تعبأ بي حين تضع قوانينك، وليس عليك أن تُداريني، فإنني أتنازل لك عن جميع حقوقى وأضع نفسي تحت تصرفك. إن السعادة القصوى عندي هي أن أضحي لك بكل شيء، دون أن يلحقك من ذلك أي ضرر. سوف أفني نفسي، وأدوب رابطة الجأش، شريطة أن تزدهر أنت وأن تبقى» ... غير أن على المجتمع أن يقول لها من جهته: «إنك تعطينا كثيرًا. وما تعطينا إياه لا يحق لنا أن نرفضه، لأنك تقولين أنت نفسك أن في هذا سعادتك، ولكن ما حيلتنا إذا كنا من جهتنا نعذب أنفسنا في سبيل سعادتك. خذي منا كل شيء أيضًا. وبكل ما نملك من قوة سوف نحاول دائمًا أن تملكي الحد الأقصى من الحرية الشخصية ومن الاستقلال. لم يبق هناك أعداء تخافين منهم الآن، لا البشر ولا نحن جميعًا ندافع عنك، نحن جميعًا نكفل لك الأمن والسلامة، سنجهد في سبيلك بدون انقطاع، لأننا جميعًا إخوة؛ نحن جميعًا إخوتك، نحن كثيرون وأقوياء. كوني هادئة كل الهدوء واثقة كل الثقة؛ لا تخشي شيئًا، واعتمدي علينا».

وبعد ذلك طبعًا لا يكون هنالك شيء يجب اقتسامه، وإنما يقتسم كل شيء من تلقاء نفسه. «أحبوا بعضكم بعضًا. وجميع هذه الأشياء ستوهب لكم زيادة» (34).

يا لها من مثالية في الواقع يا أصدقائي! إن كل شيء مبني على العاطفة، على الطبيعة، لا على العقل. وهذا يُعدُّ حتى نوعًا من المذلة للعقل. فما رأيكم؟ أهى مثالية أم لا؟

وإليكم ضربة أخرى: ما الذي يستطيع أن يفعله الاشتراكي إذا لم يوجد لدى الغربي مبدأ الأخوة، وإنما وُجد لديه المبدأ الفردي، الشخصي، الذي ينعزل بغير انقطاع، ويطالب بحقوقه مشهراً سيفه؟ إن الاشتراكي إذ يرى أن الأخوة غير موجودة، يأخذ ينادي بها، ويدعو إليها. فهو لفقدان الأخوة أن يخلق الأخوة، أن يبعث الأخوة. فمن أجل أن نطبخ يخنة بلحم الأرنب، لا بد لنا أولاً من أرنب. ولكن الأرنب غير موجود، أعني أنه لا وجود لطبيعة مؤهلة للأخوة، لا وجود لطبيعة تؤمن بالأخوة وترنو إليها من تلقاء نفسها! حتى إذا بُسِّس الاشتراكي من الأمر أخذ بيني ويُعرف المجتمع المقبل، حاسبًا بالوزن والكيل. وها هو ذا يعتمد على مبدأ المنفعة، فيشرح ويعلم ويعرض المنافع التي تتحقق في ذلك المجتمع، والفائدة التي يجنيها كل فرد. إنه يوضح دور وتطلعات كل شخص. إنه يحصي الخيرات الأرضية سلفًا، ويحسب مقدار استحقاق كل واحد لها، ومقدار ما يجب على كل واحد أن يضحي به منها طوعًا في مقابل ذلك. فأى أخوة يمكن أن توجد هنا إذا كنا نقسم هذه الخيرات منذ البداية ونحدد ما يستحقه كل واحد. ثم لقد وُضعت الصيغة: «كل واحد للجميع، والجميع لكل واحد» (35). لا يمكن أن يتصور المرء صيغة أفضل من هذه الصيغة طبعًا، لا سيما وأنها مستمدة من كتاب يعرفه الجميع. ولكن هذا نفر من الناس قد أخذوا بتطبيق هذه الصيغة، فما هي إلا ستة أشهر حتى عمد الإخوة إلى إحالة مؤسس المجتمع، كابيه، إلى المحاكمة. ولقد حاول أنصار مذهب فورييه، فيما يُقال، حاولوا بآخر ما بقي معهم، وهو مبلغ تسعمائة ألف فرنك، أن ينشئوا جماعة اشتراكية. ولم تؤدِ المحاولة إلى أية نتيجة. صحيح أنه أمر جميل أخذ أن يعيش الناس على أساس من العقل إن لم يكن على أساس من الأخوة. بتعبير آخر: إنه لشيء حسن أن يحميك الجميع وأن لا يطالبوك إلا بالعمل والوفاء. ولكن هنا ينبجس لغز من جديد: يبدو أنهم يهبون لإنسان جميع الضمانات الممكنة، فيتعهدون بإطعامه وبتأمين عمل له، طالبين في مقابل ذلك، من أجل المصلحة المشتركة والخير العام، أن يتنازل عن جزء يسير من حريته الشخصية. فماذا لو لم يشأ هذا الإنسان أن يعيش في هذه الشروط؟ إن افتقاده حتى هذا الجزء اليسير من حريته يشق على نفسه. هو يتخيل، لغبائه، أن هذا حبس، وأن من الأفضل له أن يعيش على ما يريد له هواه حرًا كل الحرية. ولكنه في الحرية يضرب، ولا يجد عملاً، ويموت جوعاً، ولا ينعم بأي استقلال. ومع ذلك يظن هذا الإنسان العجيب أن الحرية أفضل، والاشتراكي لا يملك عندئذ إلا أن يستاء، وأن يعده إنساناً أبله، شخصاً متخلف العقل لا يدرك مصلحته الشخصية نفسها. وهو يضرب له عندئذ مثلاً بالنملة المحرومة من النطق، يضرب له مثلاً بنملة هزيلة، قائلاً له أنها أذكى منه، لأن كل شيء في

قرية النمل منظم، فأفراد النمل جميعًا شبيعة سعيدة، وكل فرد من أفراد النمل يعرف عمله، وما أوسع الشقة بين الإنسان وقرية النمل!

وبتعبير آخر: إذا كانت الاشتراكية ممكنة، فليس ذلك في فرنسا حتمًا.

وعندئذ تتادي الاشتراكية بالصيغة التالية، كآخر مورد تلجأ إليه: «إما الحرية والمساواة والأخوة، واما الموت». ولا جدوى من المناقشة في هذه الحالة. وينتصر البورجوازي انتصارًا نهائيًا.

ولكن لئن انتصر البورجوازي، فإن صيغة سيس لم تتحقق إذن تحققًا حقيقيًا دقيقًا. سيس يقول: إن للبورجوازي كل شيء. فلماذا يشعر البورجوازي إذن بانزعاج، لماذا يتقلص، ماذا يخشى؟ الجميع تراجعوا، الجميع انهزموا أمامه. قبل ذلك، في عهد لويس فيليب مثلاً، لم يكن البورجوازي مرتبكاً هذا الارتباك، وجلاً هذا الوجل، مع أنه كان يحكم منذ ذلك الحين. ولكنه كان ما يزال يكافح ويناضل، وكان يحس أن له أعداء، أعداء انتصر عليهم منذ أيام حزيران (يونية) (36) بالبندقية والحربة. حتى إذا انتهت المعركة لاحظ البورجوازي أنه وحده على الأرض، وأنه ليس هناك من هو أحسن منه، وأنه المثل الأعلى، وأنه أصبح بعد الآن في غير حاجة إلى أن يؤكد هذه الحقيقة التي لا سبيل إلى جحودها، وأن كل ما بقي عليه أن يعمل هو أن يصطنع وضعاً مهيباً وجلالاً هادئاً أمام العالم بأجمعه في مظهر الجمال الأقصى، وجميع أنواع الكمال. هذا موقف مبرك، شئتم أم لم تشاءوا. ولقد أنقذه نابوليون الثالث من الارتباك والهرج. جاء نابوليون الثالث كالهابط من السماء إن صح التعبير، جاء مخرجاً وحيداً من المصاعب، جاء إمكانية وحيدة حينذاك. وعندئذ ازدهر حال البورجوازي ولكنه يدفع ثمن هذا الازدهار وهذا الرخاء غالياً، فهو يخشى كل شيء، لا لسبب إلا لأنه وصل إلى كل شيء. فمتى وصل المرء إلى كل شيء، أصبح يخاف أن يفقد كل شيء. يترتب على هذا يا أصدقائي أن المرء تزداد خشيته بمقدار ما يزداد ازدهاره ورخاؤه.

لا تضحكوا، أرجوكم. فإنني أسأل أخيراً هذا السؤال: ما هو البورجوازي الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

تتمة ما تقدم

ولماذا يوجد «بين البورجوازيين نفوس كنفوس العبيد بهذا القدر الكبير»، وذلك رغم مظهرهم الذي يبلغ المبلغ كله من النبالة؟ رحماك! لا تتهموني، لا تصرخوا قائلين أن هذا الكلام غلو ومبالغة، وأنه نيمية وتجن، وأنه ثمرة الغيرة والحسد. الغيرة من أي شيء، والحسد على أي شيء؟ إن بين البورجوازيين خدماً كثيرين، هذا كل ما في الأمر، أقوله ببساطة. إن العبودية تجتاح طبيعة البورجوازي مزيداً من الاجتياح وتتحول إلى فضيلة من الفضائل يوماً بعد يوم. وتلك نتيجة طبيعية وحتمية لما صارت إليه الأحوال الآن. والطبيعة، الطبيعة خاصة، تساهم في هذا. لن أمضي إلى حد الإدعاء، مثلاً، إن التجسس الفطري يسيطر لدى البورجوازي. أي خليل نبيل القلب نبلاً مثاليًا لا يسارع إلا أن يبيع رسائل صديقه وأن يشي بها لزوجها في سبيل عشرة آلاف فرنك، اللهم إلا أن يكون قد فرغ من جمع ثروة؟ ربما كنت أبالغ، ولكن ربما كان قولي يستند إلى وقائع محددة معينة. والفرنسي يعشق أن يكون مرموقاً في نظر السلطة الحاكمة، وأن يبرهن أمامها على عبوديته، ولو على نحو مبرأ من المنفعة. ولو دون أن ينتظر مكافأة مباشرة، بل مكافأة تحسب له ديناً، وتقيد له في حسابه الجاري إن صح التعبير. تذكروا جميع أولئك الساعين إلى المناصب مثلاً عند حدوث تلك التغيرات الكثيرة في أنظمة الحكم بفرنسا. تذكروا مكائدهم ومؤامراتهم، تذكروا مجاملاتهم المفرطة التي لا يرون داعياً حتى إلى إخفائها، تذكروا قصيدة للشاعر باربييه في هذا الموضوع.

في ذات يوم تناولت وأنا في المقهى جريدة اليوم الثالث من تموز (يوليو). فوقع بصري على رسالة من مدينة فيشي. كان الإمبراطور يقيم هنالك أيامئذٍ، وكذلك البلاط طبعاً. ومرت جولات على ظهور الجياد ونزهات. فهذا هو مراسل الجريدة يصف ذلك كله، فيبدأ كلامه بما يلي:

«عندنا هنا كوكبة من ألمع الفرسان. ولا شك أنكم حررتم على الفور من هو ألمع هؤلاء الفرسان. إن صاحب الجلالة يتروّض كل يوم بصحبة حاشيته، إلخ، إلخ...».

إن المرء يفهم أن يكون المراسل متحمساً للمزايا اللامعة التي يمتاز بها إمبراطوره. ففي وسعه أن يطري فكره وعقله وسداد آرائه وكمال صفاته، إلخ... ومن المستحيل على المرء إزاء هذه الحماسة أن يَصِمَهُ بالرياء. فلو وصمته بالرياء لكان في وسعه أن يجيبك قائلاً: «هذا اقتناعي»، كما يفعل بعض صحفيينا المعاصرين. لاحظوا جيداً أنه مكفول مأمون: إن عنده ما يرد به عليكم ليسكتكم ويفحكم. وفي طبيعة ذلك حرية الاعتقاد والرأي، وهي الحرية الأساسية. ولكن ما الذي يمكن أن يجيبكم به في هذه الحالة؟ إنه لا يقيم أي وزن لقوانين الطبيعة، إنه يدوس بقدمه كل معقولية، وذلك لهدف يريده. ولكن هل يجعله هذا الهدف على حق؟ إن أحداً لن يصدق، والفارس نفسه لن يقرأ هذه الورقة حتمًا، وهبه قرأها فهل المراسل الذي كتب هذه الرسالة الصحفية، وهل الجريدة التي نشرتها، وهل مدير هذه الجريدة، هل هؤلاء جميعاً

يمكن أن يبلغوا من الغباء مبلغًا لا يدركون معه أن العاهل ليس في حاجة كبيرة إلى أن يُشتهر بأنه أول فارس في فرنسا، ولا يدركون معه أن العاهل يقف على عتبة الشيوخوخة، وأنه لا يعول كثيرًا على تلك الشهرة، ولن يصدق حتمًا أنه أول فارس في فرنسا ولو أكدوا له ذلك، لأنه رجل ذكي جدًا فيما يُقال؟ ولكن لا... إن هناك حسابًا آخر. صحيح أن ما كتبه المراسل غير معقول، وأنه سخر مضحك، وأن الإمبراطور لن يولي هذه المقالة الصغيرة إلا ابتسامة فيها ازدراء. ولكن، في مقابل ذلك، سيكون تحت بصره مثال للخضوع الأعمى والعبودية التي ليس لها حدود. هي عبودية سخرية غير معقولة، صحيح، ولكنها عبودية، وذلك هو الشيء الأساسي.

فاحكموا الآن: لو لم يكن هذا مطابقًا لروح الأمة، لو كان مثل هذا التملق لا يُعد ممكنًا وعاديًا ومن طبيعة الأشياء تمامًا، أفكان يمكن أن تُنشر تلك الرسالة؟ في أي بلد آخر من بلاد العالم تسف الصحافة إلى هذا الدرك، وتبرهن على مثل هذا الصغار؟ ولئن قلت: روح الأمة، فلأن هذه الميول ليست ميول جريئة واحدة، بل هي ميول أكثر الجرائد، إلا اثنتين أو ثلاثًا تحتفظ ببقية استقلال.

وجدت في ذات يوم صيفًا على مائدة. كان ذلك في إيطاليا والحق يقال، غير أن المائدة ضمت عددًا كبيرًا من الفرنسيين. وكان الحديث يجري على غاريبالدي. كان جميع الناس يتحدثون عن غاريبالدي في ذلك الأوان. كان ذلك قبل حدوث ما حدث في أسبر ومونت بخمسة عشر يومًا (37). وكان الحاضرون يتكلمون بألغاز طبعًا، فبعضهم يصمتون ولا يريدون أن يبدوا آراءهم، وبعضهم يهزون رؤوسهم. وكانوا على وجه العموم يرون أن غاريبالدي قد تورط في مغامرة محفوفة بالمخاطر، بل وفي مغامرة طائشة تُنافي العقل والحكمة. ومع ذلك كانوا يعبرون عن هذا الرأي بتحفظات، لأن غاريبالدي رجل يبلغ من علو الشأن أن يعده الناس تهورًا يبدو فيه هو عقلًا. وشيئًا فشيئًا انتقل الحديث إلى الكلام على شخصية غاريبالدي. فأخذوا يحصون مزاياه. فكان الحكم أميل إلى إطراء هذا البطل الإيطالي.

وها هو ذا رجل فرنسي في نحو الثلاثين من عمره، مهيب المنظر لطيف المظهر منطبع الهيئة بتلك النبالة الخارقة التي تقجّوك لدى الفرنسيين إلى حد الوقاحة، ها هو ذا يقول بصوت عالٍ:

- هنالك شيء يدهشني في غاريبالدي. نعم، أعترف بذلك، هناك واقعة أذهلتني فيه.

التقت جميع الحضور طبعًا نحو المتحدث باهتمام مستطلعين. لا بد للصفة الجديدة المكتشفة في غاريبالدي أن تثير اهتمام الجميع وتابع الفرنسي كلامه يقول:

- سنة 1860، تمتع غاريبالدي خلال بعض الوقت في مدينة نابولي بسلطة غير محدودة ولا رقابة عليها (38). فكان في يده مبلغ عشرين مليونًا من أموال الدولة! ولم يكن عليه أن يقدم كشف حساب لأحد! كان يملك أن يأخذ هذا المال لنفسه، وأن يتصرف فيه على ما يشاء له هواه، دون أن يخشى أية مطالبة. فبدلًا من أن يأخذ شيئًا لنفسه ردَّ المال كله إلى الحكومة حتى آخر قرش. ذلك أمر لا يكاد يصدقه العقل!

وكانت عينا المتحدث تسطعان سطوعاً قوياً أثناء كلامه عن هذه العشرين مليوناً.

من الممكن طبعاً أن يقص المرء كل ما يشاء أن يقصه عن غاريبالدي. أما أن يوازن بينه وبين أولئك الناس الذين يسطون على أموال الدولة، فذلك أمر لا يستطيعه إلا فرنسي. وما أكبر السذاجة والبساطة اللتين ظهرتا عليه وهو ينطق بهذا الكلام! إن المرء يغفر للسذاجة كل شيء طبعاً، يغفر لها حتى فقدان الإحساس الحقيقي بالشرف والأمانة. ولكنني لم أملك وأنا أتأمل الشخص الذي يعبث هذا العبث ويمزح هذا المزاح وهو يتذكر مبلغ العشرين مليوناً، إلا أن أقول بيني وبين نفسي:

«هيه، هيه، أيها الرجل الشهم الشجاع! ماذا لو كنت ممسكاً بالدفة عندئذٍ في مكان غاريبالدي!...».

ستقولون لي أنني ظالم مرة أخرى، فهذه حالات خاصة، وأمثلة فردية؛ وستقولون لي أن في بلادنا حالات كهذه الحالات، وليس من حقي أن أعمم هذا التعميم. أنا لا أتكلم عن جميع الفرنسيين طبعاً. فالنبالة التي لا توصف موجودة في كل مكان. ولعلنا رأينا في بلادنا ما هو شر من ذلك أيضاً. ولكن لماذا يجعلون من هذا فضيلة؟ هل تريدون أن أفصح لكم عن رأيي؟ قد يكون أحد الناس ندلاً دون أن يعقد الإحساس بالشرف. وهناك طائفة كبيرة من ناس شرفاء، لكنهم في مقابل ذلك فقدوا الإحساس بالشرف، فهم لذلك يرتكبون أعمالاً دنيئة، دون أن يعلموا أنهم يتصرفون بدافع الفضيلة. فالفتنة الأولى أفسد من الثانية طبعاً، ولكن الفتنة الثانية أجدر بالاحتقار شئتم أم أبيتم. إن مثل هذا التعليم للفضائل هو عرض من أعراض المرض في حياة أمة. أما ما قلتموه عن الحالات الخاصة فلست أريد أن أناقشكم فيه. هل تتألف الأمة إلا من حالات خاصة؟ صحيح هذا أم غير صحيح؟

لا بل إليكم رأيي. لعلني قد أخطأت أيضاً وجافيت الصواب حين زعمت أن البورجوازي يتقلص، وأنه ما يزال يخشى شيئاً ما. صحيح أنه يغضب وأنه يشعر بمخاوف. ولكن إذا وضعنا قائمة بالأموال وجدنا أن البورجوازي يزدهر ازدهاراً كاملاً. ورغم أنه يضل هو نفسه فيكرر قائلاً لنفسه في كل لحظة أن كل شيء يجري على ما يرام، فإن ذلك لا يفسد ما يبدو عليه في الظاهر من ثقة. أكثر من ذلك: إنه حتى في قرارة ضميره واثق من نفسه إلى أبعد حدود الثقة حين يهتاج.

كيف يجتمع هذا كله في نفسه؟ كيف يتصالح هذا كله في نفسه؟ ذلك سؤال يلقيه الآن حقاً. ولكن هذا هو الواقع. هكذا الأمور. ليس البورجوازي على وجه العموم بالغبي، فكره قصير جداً، كأنه جزء من فكر. إنه يملك مؤونة ضخمة من الأفكار الجاهزة، كمؤونة الحطب التي ندخرها للشتاء البارد؛ وهو يعوّل جاداً على أن يعيش بها ألف سنة إذا لزم الأمر. ولكن ماذا أقول؟ إن البورجوازي قلما يتكلم عن ألف عام، اللهم إلا حين يستسلم للفصاحة والبلاغة في أكثر تقدير. والقول المأثور «أنا من بعدي الطوفان» مطبّق في أحيان أكثر.

وما أقل اكتراثه بكل شيء، وما أشد اهتمامه بالترهات الباطلة! ضمنني مجتمع بباريس في منزل كان يرتاده عندئذٍ عدد كبير من الناس. كان يبدو علي الجميع أنهم يخشون أن يعالجوا أي موضوع يخرج عن المألوف، وأن يتحدثوا، بدلاً من حديثهم

في الترهات، أن يتحدثوا في مسائل عامة لها شأن اجتماعي. في رأيي أن الخوف من الجواسيس لم يكن له دخل في موقفهم هذا. كل ما في الأمر أنهم جميعاً قد فقدوا القدرة على أن يفكروا وأن يتكلموا في أمور جدية. وكان هناك من جهة أخرى أناس اهتموا كثيراً بانطباعاتي عن باريس، فأخذوا يستطلعون مدى إعجابي بها، ودهشتي منها، وانسحابي تحت وطأتها، وانعدامي بتأثير روعتها. إن الفرنسي ما يزال يعتقد أنه قادر روحياً على أن يسحق وعلى أن يُعَدِم. ذلك أيضاً عرض من أعراض مرض يبعث على الضحك. وإني لأتذكر على وجه الخصوص شيخاً قصيراً رائعاً قد محضته عاطفة صادقة. كان ينظر إليّ محدقاً ويسألني عن رأيي في باريس، فيشعر بحزن حين لا يرى أن حماسي لباريس شديدة. كان وجهه الطيب يعبر عنده عن ألم حقيقي، لست أبالغ. أوه! عزيزي... إنك لن تستطيع في يوم من الأيام أن تجرد أي فرنسي، أعني أي باريس (ذلك أن جميع الفرنسيين باريسيون في حقيقة الأمر)، من فكرة أنه أول إنسان على وجه الكرة الأرضية. وهو، من جهة أخرى، لا يعرف من الكرة الأرضية إلا قليلاً جداً باستثناء باريس، ولا يحرص على أن يعرفها أي حرص.

على أن الخاصة التي تميّز الفرنسي أكثر مما تميزه أية خاصة أخرى إنما هي البلاغة أو الفصاحة. إن حب بلاغة اللسان وحسن البيان لا ينطفئ أواره في نفس الفرنسي ولا يزداد بتقدم السنين إلا تأججاً. وددت لو أعرف متى بدأ حب بلاغة اللسان وحسن البيان هذا في فرنسا. لا شك أنه قد اتسع اتساعاً كبيراً في عهد لويس الرابع عشر. من الأمور البارزة أن كل شيء في فرنسا يرجع تاريخه إلى عهد لويس الرابع عشر. غير أن ما هو أبرز من ذلك أن كل شيء يرجع تاريخه في أوروبا كلها أيضاً إلى عهد لويس الرابع عشر. إنني لا أصل إلى فهم قوة الإغراء والفتنة في هذا الملك! ذلك أنه لا يفوق كثيراً سائر الملوك الذين سبقوه. لأنه كان أول من قال: «الدولة هي أنا»؟، لقد نالت هذه الكلمة إعجاباً ضخماً وانتشرت في أوروبا كلها. أظن أن هذا وحده قد جعله شهيراً. حتى في بلادنا عرفها الناس بسرعة مذهلة لقد كان هذا الملك، لويس الرابع عشر، قومياً إلى أبعد حد، يمثل الروح الفرنسية كل التمثيل، بحيث أنني لا أفهم حتى كيف أمكن أن تحدث تلك «الشيطنات» (39)... في آخر ذلك القرن نفسه. وقد عاد الناس بعد جنون متكرر إلى الروح القديمة. إنهم يميلون إليها ويتجهون نحوها. ولكن بلاغة اللسان... آ... بلاغة اللسان هي حجر عثرة بالنسبة إلى الباريسي. إن الباريسي مستعد لأن ينسى من الماضي كل شيء، كل شيء تماماً؛ مستعد لأن يجري أحاديث معقولة إلى أبعد حد، وأن يكون من أطوع التلاميذ وأكثرهم جدّاً واجتهاداً. ولكن بلاغة اللسان، بلاغة اللسان وحدها لا يمكن حتى الآن أن تُمحى من ذاكرته. إنه يشترك إلى بلاغة اللسان، ويصبو إليها ويتلهف عليها. إنه يتذكر تيير (40)، وجيزو (41)، وأوديلون بارو (42)؛ ويقول لنفسه أحياناً وهو يتنهد: «كانوا بلغاء في ذلك الزمان»، ثم يطرق واجماً مفكراً. وقد أدرك نابوليون الثالث هذه الحقيقة، فسرعان ما قرر أن على جاك بونوم أن لا يطرق واجماً مفكراً، وسرعان ما عمل على إصلاح حال البلاغة. ومن أجل هذا يحتفظون في «الهيئة التشريعية» بستة نواب ليراليين، أي ستة نواب قد يكونون أناساً لا يمكن افسادهم، ومع ذلك فإن عددهم ستة ولم يكونوا إلا ستة، ولن

يكونوا إلا ستة. لن يزيد عددهم ولن ينقص، اطمئنوا! إن هذا يبدو معقدًا جدًا من أول نظرة. ولكن الأمر أبسط من ذلك كثيرًا في الواقع، وهو يتم بواسطة «الاقتراع العام».

صحيح أن جميع الإجراءات المناسبة تُتخذ من أجل منعهم من الإفاضة في الكلام كثيرًا. ولكنهم يُسمح لهم بأن يثرثروا. في كل سنة، تناقش في الوقت المناسب، المسائل السياسية الهامة، فيتأثر الباريسي تأثرًا ناعمًا، وتهتز نفسه اهتزازًا رقيقًا. هو يعلم أنه سيسمع كلامًا فصيحًا، وسينعم بلغة بليغة، فيبتهج بذلك ويغتنب. صحيح أنه لا يجهل أن كل شيء سيقصر على طوفان من الكلمات التي لن تؤدي إلى أية نتيجة. ولكنه سعيد بذلك. وهو نفسه أول من يجد هذا كله معقولًا جدًا. وإن خطب بعض هؤلاء الأعضاء الستة تتمتع بشعبية خاصة. والعضو مستعد دائمًا لأن يسهب في الخطابة ليسلي الجمهور. شيء غريب: إنه مقتنع هو نفسه بأن خطبه لن تؤدي إلى شيء، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون مزاحة، أو لعبة بريئة، أو حفلة مرح. ومع ذلك فهو يتكلم، يتكلم عدة سنين متتالية، ويحسن الكلام، حتى يشعر بلذة قوية. وزملاؤه يتהלلون طربًا عند سماعه. «إنه يحسن الكلام!». والرئيس يطرب، وفرنسا كلها تطرب. ولكن العضو ينهي خطابه، فإذا بمربي هؤلاء الأطفال الطبيعيين المذهبين ينهض هو أيضًا، فيعلن أن «الإنشاء» الذي دبجته يراعة العضو عن الموضوع المطروح، وهو: «شروق الشمس»، قد أجاد العضو المحترم معالجته وبحثه، وأننا «أعجبنا بموهبة الخطيب المحترم، وبآرائه وبما تدل عليه هذه الآراء من سلوك ممتاز، وأننا جميعًا قد أخذنا وفنتنا... ولكن رغم أن العضو المحترم جدير حقًا بمكافأة على حسن السلوك والجد والاجتهاد، فإن خطاب العضو المحترم، يا أيها السادة، هو بسبب اعتبارات عليا عديم القيمة لا يساوي شيئًا. أمل، أيها السادة، أن تكونوا على اتفاق معي في الرأي». وهو في تلك اللحظة يلتفت إلى أعضاء المجلس وتقسو نظرتهم، فإذا بالأعضاء الذين كانوا يتהלلون طربًا منذ قليل، يصفقون للمربي بحماسة عارمة، ولكن هذا لا يمنعهم من أن يضافحوا زميلهم اللبرالي مهنئين، وأن يشكروا له ما أتاحه لهم من متعة، وأن يرجوه تكرار هذه المتعة في المرة القادمة، بإذن من المربي. ويوافق المربي على ذلك هاشًا باشًا. ويخرج كاتب موضوع «شروق الشمس» معتزًا بما أصاب من توفيق وحقق من نجاح؛ ويعود الأعضاء إلى أسرهم وهم يتلمظون؛ ومن شدة فرحهم يقومون عند المساء بنزهة في «الباليه رويال» متأبطين أذرع حليلاتهم، مصغين إلى خرير المياه المتدفقة من نوافير الماء التي تُرطب الجو، بينما يصرح المربي لفرنسا كلها، بعد أن يكون قد كتب تقريرًا لمن يجب أن يكتب له التقرير، يصرح لفرنسا كلها أن كل شيء يجري على خير حال.

ويحدث من جهة أخرى في بعض الأحيان، متى كان الأمر أمر قضايا أهم، أن يعمدوا إلى اللعبة الكبرى، فيؤتى إلى إحدى الجلسات بالأمير نابوليون نفسه (43)، فيأخذ الأمير نابوليون فجأة بالمعارضة، فيجزع جميع هؤلاء التلاميذ الصغار.. يسود الفصل صمتٌ مهيب. يمثل الأمير دور اللبرالي. الأمير ليس على اتفاق مع الحكومة. هو يرى كيت وكيت. الأمير ينتقد الحكومة. إنه، باختصار، يقول ما كان

يمكن أن يقوله (فيما يُفترض) هؤلاء الأولاد اللطاف، لو ترك المعلم الفصل لحظة من اللحظات. يقوله هو أيضًا باعتدال طبعًا. ولكن من هذا الافتراض باطل، لأن هؤلاء الأولاد اللطاف يبلغون من حسن الأدب وكمال التهذيب أنهم لا يتحركون ولو غاب المعلم أسبوعًا كاملاً. حتى إذا انتهى الأمير نابوليون من كلامه، نهض المعلم وأعلن في مهابة وفخامة أن موضوع «الإنشاء»، وهو: «شروق الشمس»، قد عولج من قبل الخطيب معالجة كاملة وبُحث بحثًا ممتازًا. لقد أعجبنا بموهبة الأمير، وبأرائه التي عبّر عنها تعبيرًا بليغًا، وبالفضائل التي يتحلى بها... فنحن مستعدون لأن نهدي إليه جائزة المواظبة وحسن الاجتهاد، ولكن... إلخ (راجع ما سبق). فيصفق جميع تلاميذ الفصل طبعًا، بحماسة تبلغ حد الجنون. ويُعاد الأمير إلى بيته. ويُترك التلاميذ المؤدبون المدرسة، كقديسين صغار، ويتنزهون في المساء مع حلياتهم في «الباليه رويال»، منصتين إلى تدفق المياه من النوافير التي ترطب مياهها الجو، إلخ، إلخ... أي باختصار، يسود نظام مدهش.

في مرة من المرات، ضللنا طريقنا في «قاعة الخطى التائهة» من قصر العدل، فبدلاً من أن نصل إلى محكمة التأديب وصلنا إلى المحكمة المدنية. كان هناك محامٌ مجعد الشعر يرتدي ثوب المحاماة والقلنسوة، وكان المحامي بسبيل إلقاء مرافعة، فكان ينشر لآلئ من البلاغة والفصاحة، وكان جمهور المستمعين يرتعشون حماسةً. إن صمتاً دينياً يرين على الجو. دخلنا سائرين على رؤوس أصابع الأقدام. كانت القضية التي يترافع فيها المحامي قضية ميراث. وكان عدد من الرهبان داخلين في القضية. إن الآباء الروحيين يدخلون الآن في بعض القضايا كل لحظة، ولا سيما في قضايا المواريث. ذكرت وقائع فاضحة مقرزة. ولكن الجمهور صامت لا يُظهر استياءً من الفضائح، لأن الرهبان قد نالوا سلطة كبيرة، والبورجوازي رجل فاضل إلى أبعد حد. إن الآباء الروحيين يشاركون مزيداً من المشاركة كل يوم في الرأي القائل بأن رأس مال يملكه المرء خير من جميع الأحلام التي تراود خياله، وخير من البلاغة نفسها، وأنه يكفي المرء أن يجمع مالاً حتى يكون قوياً، على حين أن البلاغة... البلاغة وحدها... عاجزة عن أن تكفل نجاحاً. ولكنهم مخطئون قليلاً في هذه الحالة الأخيرة في رأيي. صحيح أن امتلاك رأس مال أمرٌ يجب أن لا يستخف به، ولكن المرء يستطيع أن يحصل من الرجل الفرنسي على أشياء كثيرة بالبلاغة. والحليلات خاصةً يخضعن لسلطان الآباء الروحيين، بل إنهن ليخضعن الآن لهذا السلطان أكثر مما كن يخضعن له في الماضي. ومن الجائز جداً أن يلتفت البورجوازي إلى هذه الناحية أيضًا. أظهرت المحاكمة كيف أن الآباء الروحيين قد استطاعوا بضغط بارع حاذق (إنهم علماء في هذا الباب)، خلال أعوام، أن يخدعوا سيدة لطيفة غنية جداً، حتى إذا استقرت في دير من الأديرة بفضل حيلهم ومكائدهم راحوا يرهبونها إلى أن أصبحت من ذلك مريضة، وصارت توافيها نوبات عصبية، وكل ذلك إنما فعله أولئك الآباء الروحيون محسوباً حساباً دقيقاً، وفعلوه بتدرج ماهر بارع. وأخيراً، بعد أن جعلوها شبه بلهاء، خيلوا إليها أنها تأثم إثماً كبيراً أمام الله إذا هي رأت أبويها، ثم أبعادوا جميع أفراد أسرتها شيئاً بعد شيء. «حتى ابنة أختها، التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، والتي هي ملاك من ملائكة الطهارة والبراءة، والتي كانت تحب خالتها أكثر مما تحب أي شيء في هذا العالم، أصبحت لا تجرؤ

أن تدخل حجرة خالتها العزيزة التي تحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم، وأصبحت الخالة لا تستطيع، بعد مكائد غامضة مريبة، أن تطيع قبلةً على «جبينها العذراوي» الذي يستقر فيه الملاك الأبيض، ملاك الطهارة والبراءة باختصار، كان الأسلوب كله يجري هذا المجرى: أسلوب معجز! كان المحامي يتהלّل طرباً ويطير فرحاً لإجادته الكلام هذه الإجادة، وكان رئيس المحكمة والحاضرون يتهلّلون طرباً ويطيرون فرحاً كذلك. هكذا فقد الآباء الروحيون قضيتهم بسبب البلاغة وحدها. ولكن الآباء الروحيين لا يرضون أن يُجندلوا: لأن خسروا قضية، إنهم ليربحون خمس عشرة قضية.

سألت طالباً شاباً كان بين الحضور المحترمين:

- من هذا المحامي؟

كان في المحكمة عدد غفير من الطلاب، وكانت تبدو عليهم مظاهر الجد والاهتمام. نظر إليّ الطالب مدهوشاً. ثم أجابني أخيراً وقد ظهرت في وجهه معاني إشفاق فيه احتقار أخلني، أجابني بقوله:

- جول فافر (44).

هكذا أتيح لي أن أعرف زهرات البلاغة الفرنسية، وأن أقع على هذه البلاغة الفرنسية في منبعها الرئيسي إن صح التعبير.

ولكن هذه المنابع كثيرة لا يُحصى عددها. إن البورجوازي مشبع بالبلاغة حتى أطراف أظافره. ذهبنا ذات الی البانتيون لنرى العظماء. ذهبنا في ساعة ليست هي ساعة الزيارة فدفعنا فرنكين اثنين. نهض أحد مشوّهي الحرب فتناول المفاتيح وقادنا إلى أقبية الكنيسة. فكان أثناء الطريق ما يزال يتكلم كما يتكلم سائر الناس، على شيء من المغمغة بسبب فقدانه أسنانه. ولكن ما إن صرنا في الأقبية، حتى أخذ يتدفق في الكلام منذ وقفنا أمام أول ضريح:

- «هنا يرقد فولتير، فولتير، تلك العبقرية العظمى من عبقریات فرنسا الجميلة. لقد اجتث الأوهام، وهدّم الجهل، وصارع شيطان الظلام، وأمسك شعلة الضياء. بلغ في تراجيدياته ذروة الروعة، رغم أن فرنسا كانت تملك قبله شاعرها كورني (45)».

واضح أن الرجل كان يلقي درساً حفظه على ظهر القلب. إن أحداً قد كتب له هذه العبارات الطويلة على ورقة، فحفظها ليردها إلى آخر حياته. حتى لقد كان وجهه العجوز يشرق رضى وسروراً وفرحاً منذ أن بدأ يتلو أماننا عباراته الجميلة تلك.

وتابع كلامه قائلاً وهو يقترب من ضريح آخر:

- «هنا يرقد جان جاك روسو، جان جاك روسو رجل الطبيعة والحقيقة» (46).

شعرت فجأة برغبة في أن أضحك. إن كل شيء يمكن جعله بالأسلوب النبيل الرفيع تافهاً مبتذلاً. ولكن كان واضحاً أن العجوز المسكين لم يكن أثناء كلامه عن «الطبيعة والحقيقة» يفهم من الأمر شيئاً.

قلت له:

- شيء غريب: إن أحد هذين الرجلين كان يصف الآخر طوال حياته بأنه كاذب وشرير، بينما كان الثاني يصف الأول بأنه غبي لا أكثر، ثم ها هما الآن يرقدان جنبًا إلى جنب.

أراد المسكين أن يجيب، فقال:

- مسيو، مسيو...

ولكنه سرعان ما صمت وقادنا بسرعة إلى ضريح آخر.

وقال بصوت مرعد من جديد:

- هنا يرقد «لان»، المارشال لان، وهو واحد من أعظم الأبطال الذين أنجبتهم فرنسا، وما أكثر ما أنجبت فرنسا من أبطال!.. لم يكن ماريشالًا عظيمًا فحسب، لم يكن أبرع قادة الإمبراطور فحسب، بل كان ينعم إلى ذلك بثراء طائل. وكان صديق....

قلتُ رغبةً في اختصار خطابه:

- نعم، كان صديق نابوليون...

فقاطعتني الرجل قائلاً بلهجة تتم عن شيء من الاستياء:

- مسيو... مسيو... دعني أتمم كلامي.

- تكلم، تكلم، أنا مصغٍ إليك.

- بل كان ينعم إلى ذلك بثراء طائل، وكان صديق الإمبراطور، ما من أحد بين جميع ماريشالات الإمبراطور حظى بأن يكون صديق الإمبراطور. المارشال «لان» وحده استحق هذا الشرف. وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه...

- نعم، نعم، تحطمت ساقاه بقنبلة...

صاح الرجل يقول بصوت يوشك أن يعبر عن شكاة وضراعة:

- مسيو، مسيو... دع لي أن أتكلم أنا... ربما كنت تعرف هذا كله... ولكن دع لي أن أتكلم أنا أيضًا!.

كان هذا الإنسان العجيب يحترق شوقًا إلى أن يتكلم، رغم أننا نعرف جميعًا كل ما سيرويه.

استأنف يقول:

- وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه تأثر الإمبراطور تأثرًا شديدًا، وبكى حزنًا على فقده، و...

لم أستطع أن أمتنع عن الكلام، فقلت مكملًا:

- وجاء يودّعه..

ولكنني سرعان ما شعرت بخطئي، حتى لقد خجلت.

قال الشيخ متوسلاً متضرعاً، وهو يحدجني بنظرة عتب رقيق ويهز رأسه الأثيب:

- مسيو، مسيو... أنا أعلم... أنا على يقين من أنكم تعرفون هذا كله، وربما كنتم تعرفونه خيراً مما أعرفه. ولكنكم اخترتموني من تلقاء أنفسكم دليلاً لكم. فاتركوني أتكلم. لن يطول كلامي الآن... إذن تأثر الإمبراطور تأثراً شديداً، وبكى حزناً على فقده (بكى حيث لا ينفع بكاء وا أسفاه!)، كما تأثر وحزن الجيش كله، وكما تأثرت وحزنت فرنسا كلها، ودنا الإمبراطور من سرير المحتضر، فخفف حضوره هذا آلام القائد الذي لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة على مرأى من الإمبراطور تقريباً.

ثم أضاف الرجل يقول بنظرة لوم وعتب:

- انتهى كلامي يا سيدي.

وانتقل إلى مكان آخر. وأردف يقول وهو يومئ برأسه إلى قبور أخرى توجد على مقربة منا:

- وهذه مقبرة أخرى... إنها تضم رفات عدد من أعضاء مجلس الشيوخ...

قال ذلك بلهجة تدل على قلة الاكتراث. لقد استنفد بلاغته كلها في الكلام على فولتير وجان جاك روسو والماريشال «لان».

كان ذلك مثلاً مباشراً، مثاراً شعبياً إن صح التعبير، على حب البلاغة لدى الفرنسيين. أصبح أن جميع هذه الخطب التي ألقاها خطباء المجلس الوطني ومجلس الثورة والنوادي، والتي كان يشارك فيها الشعب مشاركة تكاد تكون مباشرة والتي كانت تعيد تربية الشعب تربية جديدة، أصبح أن هذه الخطب لم تترك في الشعب إلا أثراً واحداً: حب البلاغة للبلاغة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

حبيبتي و غزالتى

والقريينات تزدهر حالهن ويعلو شأنهن كما سبق أن قلت. بالمناسبة: سوف تسألونني لماذا أقول القريينات بدلاً أن أقول الزوجات؟ السبب هو الأسلوب الرفيع يا سادتي! إن البورجوازي يقول دائماً: «قرينتي»، حين يتكلم بأسلوب رفيع نبيل. ورغم أن الناس في الطبقات الاجتماعية الأخرى، كما في كل مكان، يقولون: «الزوجة»، فإن الأفضل أن نتبع الروح القومية لدى الأكثرية، وأن نتبع البيان الرفيع. ذلك أقرب إلى إبراز خصائص المجتمع الذي نتحدث عنه. على أن هناك تسميات أخرى. فحين يريد البورجوازي أن يصطنع العاطفة أو أن يخون زوجته فإنه يخاطبها دائماً بقوله: «يا غزالتى». وكذلك فإن الزوجة التي لها عشيق تخاطب زوجها البورجوازي العزيز بقولها «يا حبيبي» حين تستبد بها نوبة فرح رقيق، وهذا أمر يرضى عنه البورجوازي كثيراً من جهته. إن كلمتي: «حبيبي» و «غزالتى» رائجتان مزدهرتان الآن أكثر من أي وقت مضى! وإذا صرفنا النظر عن أن «حبيبي» و «غزالتى»، المتفق (ضمناً على وجه التقريب) على أنهما يمثلان الفضيلة والوفاء وطهارة الحب في عصرنا المعذب هذا، على نقيض رأي أولئك الأوغاد الشيوعيين الكريهين، إذا صرفنا النظر عن هذا. فإن «حبيبي» يصبح أكثر ليونة وأشد طواعية وسهولة من الناحية الزوجية سنة بعد سنة. إنه يدرك أن أنواع التوبيخ الشديد والتقريع القاسي، وجميع صنوف الاحتياط والحذر، عاجزة عن أن تصد «غزالتى»، وأن الباريسية إنما خلقت للعشيق، وأن الزوج لا حيلة له في أن يتحاشى أن يكون له قرنان. فهو لذلك يصمت. ولكنه إنما يصمت قبل أن يجمع مبلغاً كبيراً وأن يقتني أشياء كثيرة حتى إذا توافر له هذا الشرطان، أعني المبلغ الكبير والأشياء الكثيرة، فإن حبيبي يصبح أكثر تشدداً، لأنه يأخذ يحترم نفسه احتراماً كبيراً ويقدر نفسه قدرًا عظيمًا. وعندئذٍ إنما يأخذ ينظر إلى جوستاف بعين أخرى، لا سيما إذا كان جوستاف و غداً من الأوغاد.

نستطيع أن نقول على وجه العموم أن الباريسي الذي يملك إيراداً ولو ضئيلاً، إنما يبحث، حين يرغب في الزواج، عن خطيبة مناسبة من الناحية المالية. أكثر من ذلك أنهم يضعون كشفاً بالإيرادات في أول الأمر، فإذا كانت إيرادات كل من الطرفين مكافئة لإيرادات الآخر تم الزواج. فإذا فرضنا مثلاً أن رأس مال الخطيبة أكبر ولو قليلاً من رأس مال الخطيب رُفض الخطيب، وجرى البحث عن رجل أنسب. يضاف إلى ذلك أن الزواج القائم على الحب يصبح مستحيلاً أكثر فأكثر، حتى ليكاد يعد زواجاً غير لائق. وقلمًا يخرج أحد على هذه القاعدة الحكيمة أو يخل بها، أعني قاعدة التساوي المطلق بين محتويات جيب الخطيبين واتحاد رأس مال كل منهما برأس مال الآخر، أو قولوا على الأقل إن الإخلال بهذه القاعدة أندر هنا منه في أي مكان آخر. إن البورجوازي قد نظم التمتع برأس مال زوجته لمصلحته. وذلك هو السبب في أنه مستعد لأن يغضى في مناسبات كثيرة جداً عن المغامرات التي تقوم بها «غزالتى»، ولأن لا يلاحظ بعض الأشياء التي تسوءه ملاحظتها، وإلا فلو تم

الانفصال بينه وبين زوجته لكان من الممكن أن تثار قضية المال الذي دفعته الزوجة مهرًا. وإذا ظهرت على «غزالتى» في بعض الأحيان أنفاة فوق مستوى موارد الأسرة فإن «حبيبى» يغضى ذلك، لأن «غزالتى» ستطالبه من أجل زينتها بمبالغ أقل، وستكون أكثر إراحة له وأقل إزعاجًا. وإذا كان الزواج اتحاد رأس مال برأس مال إلى حد بعيد، وإذا كانت العاطفة المتبادلة ليس لها شأن كبير، فإن «حبيبى» لا يكره أن يتطلع إلى غزالات أخرى غير غزالتة. لذلك كان الأفضل أن لا يضايق أحد الزوجين صاحبه. وبهذا يسود الأسرة وفاق أعظم، ويتبادل الزوجان ألقابًا أرق وأجمل. ثم إن «حبيبى» قد عرف كيف يضمن الأمور لنفسه. إن مفوض الشرطة في خدمته دائمًا، وذلك وفقًا للقوانين التي منحها هو لنفسه. فيستطيع، في أسوأ الأحوال، إذا هو فاجأ العشيقين «متلبسين بالجرم»، أن يقتلها دون أن تقع عليه أية مسؤولية. و «غزالتى» تعرف هذا ولا ترى فيه ضيرًا. إن وصاية طويلة الأمد قد شكلت «غزالتى» على صورة معينة، فهي لا تتذمر، ولا تحلم (كما في بعض البلاد الهمجية المضحكة) أن تتعلم في الجامعة مثلاً، وأن يكون لها مناصب في النوادي أو مقاعد بين النواب. إنها تؤثر أن تظل في وضعها الطليق الحر الراهن، كطائر الكناري. إنهم يُزينونها، ويُلبسونها أجمل الحل، ويقودونها إلى النزهات. وهي ترقص، وتقضم سكاكر، وهي تستقبل في الظاهر كما تستقبل ملكة، والرجل في الظاهر جاثٍ عند قدميها. إن هذا الشكل من العلاقات قد رُتب ترتيبًا موفقًا مناسبًا في آن واحد. هذه علاقات تسيطر عليها روح الفروسية، فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ لن ينتزعوا من المرأة عشيقها جوستاف، وهي لا تتوق إلى أهداف سامية نبيلة في الحياة، إلخ.. وإنها في حقيقة الأمر رأسمالية ومقترة كزوجها.

حتى إذا انقضى عهد طائر الكناري، أي حين تصل الزوجة إلى النقطة التي يستحيل عليها عندها أن تخون زوجها، وأن تظن نفسها طائر كناري، حين يبدو لها أن العثور على جوستاف جديد أمر يستحيل أن يتخيله أحرّ خيال وأطوع خيال، فإن «غزالتى» تتبدل عندئذ تبدلًا مفاجئًا مؤسفًا. وداعًا عهد الغندرة والغنج والدلال والتزين والفرح! إنها تصبح في كثير من الأحيان حادة الطبع، مقترة، ترتاد الكنائس، تدخر المال مع زوجها؛ إن نوعًا من الاستهتار يغزوها من كل صوب. وعندئذ تظهر السامة، والحسرة، والغرائز الفظة، وغرور الحياة، والأحاديث البذيئة. حتى أن بعض النساء يهملن أنفسهن حينذاك. غير أن هناك حالات أكثر إبهاجًا بطبيعة الحال. وصحيح أن أمثال هذه العلاقات الاجتماعية موجودة في كل مكان، ولكن... هي هنا أقرب إلى طبيعة الأمور، هي هنا أكثر أصالة وعفوية، هي هنا أشد وأقوى، هي هنا قومية أكثر مما هي كذلك في أي مكان آخر. هنا منبع وبذرة ذلك الشكل البورجوازي للمجتمع، ذلك الشكل الذي يسود العالم كله الآن على صور تقليد مستمر ودائم للأمة الكبرى.

نعم، إن «غزالتى» ملكة في الظاهر. إن من الصعب على المرء أن يتصور ما تحاط به في كل مكان من أدب لطيف ورعاية مزعجة، في المجتمع والشارع. ويبلغ هذا كله من شدة الرهافة، ويبلغ من فرط البشاعة أن النفس المستقيمة الصادقة لا يمكن أن تطيقه. ذلك أن المخادعة الواضحة في هذا الرياء السافر لا بد أن تسوءها

حتى أعماق القلب. ولكن «غزالتى» نفسها مخادعة كبرى... فهي لا تطلب شيئاً آخر غير المخادعة والغش... إنها تؤثر المكر دائماً على الأساليب المستقيمة التي ليس فيها لف ولا دوران ولا إلتواء: ذلك في رأيي أضمن، فهو يدع للعب مجالاً أكبر. واللعب، في نظري «غزالتى» يفوق كل شيء؛ اللعب والمكر هما في المقام الأول.

وفي مقابل ذلك، انظر إلى ملابسها، انظر كيف تخطو في الشارع! إن «غزالتى» تحب الأوضاع المصنوعة المتكلفة الخالية من كل ما هو طبيعي. ولكن هذا أيضاً يثير الإعجاب، ولا سيما إعجاب الفاسدين، الفاسقين بعض الفسق، الذين فقدوا حب الجمال الغض النضر الطبيعي. و «غزالتى» ليست إلا على خط ضئيل جداً من النمو. إن لها دماغ عصفور وقلب عصفور. ولكن ما أرشقها في مقابل ذلك. إن لديها مخزناً زاخراً بالأسلحة المصطنعة، فما إن تستولي عليك حتى تتبعها كما تتبع شيئاً جديداً لاذع النكهة. يندر أن تكون جميلة. حتى أن وجهها يتسم بالخبث والشر. ولكن أي بأس في هذا؟ إن في هذا الوجه حركة وبُشرا، وهو يجيد اصطناع العاطفة وافتعال الطبيعة إجادةً تبلغ درجة الكمال. ربما لم تكن هذه المحاكاة للطبيعة هي التي تعجبك فيها، ولكن الذي يعجبك فيها هو حسن تدبرها للأمر. إن فيها هو الذي يفتنك. وفي أكثر الأحيان يكون التظاهر بالحب مساوياً للحب الحقيقي في نظر الباريسي، حتى لقد يرضيه التظاهر بالحب إرضاءً أكبر. هناك طريقة شرقية في النظر إلى الأمور تظهر مزيداً من الظهور في باريس يوماً بعد يوم: إن غادات الكاميليا تروج «موضتهن» أكثر فأكثر. «خذي المال، وأجيدي الخداع، أي برهني عليه أو تظاهري به». ذلك ما يُطلب منهن. ولا يكاد يطلب أحد من «قرينته» أكثر من هذا، أو هو يكتفي به على الأقل. لذلك يُقبل العشيق جوستاف بتسامح ضمني. زد على ذلك أن البورجوازي يعرف أن «غزالتى» ستندر حياتها كلها لمصالحه حين تدلف إلى الشيخوخة، وأنها ستكون نعمّ العون له على كنز المال وجمع الثراء. وهي تعينه حتى أثناء شبابها. فهي في بعض الأحيان تتولى تجارة بكاملها وتجذب الزبائن، أي تكون ساعده الأيمن وتكون في محل البائع الأول. فكيف لا يغفر والحالة هذه أن يكون لها خليل إسمه جوستاف؟ المرأة في الشارع لا تمس. ما من أحد يسيء إليها. جميع الناس يقدمونها على أنفسهم، خلافاً لما يجري في بلادنا روسيا حيث لا تستطيع امرأة، اللهم إلا أن تكون عجوزاً، لا تستطيع أن تخطو في الشارع خطوتين دون أن يحملق فيها دون خوان ما، ويعرض عليها التعارف.

على أن الشكل العادي المألوف للعلاقات بين «حبيبي» و «غزالتى»، رغم وجود عشيق إسمه جوستاف، هو شكل لطيف جداً، حتى قد يكون ساذجاً في كثير من الأحيان. ولقد فاجأني هذا الأمر بوجه عام: يكاد يكون جميع الأجانب أسذج كثيراً من الروس. يصعب شرح هذا بمزيد من التفصيل: وإنما ينبغي للمرء أن يلاحظه بنفسه. «إن الروسي رِيَاب ساخر»: هذا ما يقوله عنا الفرنسيون. وهو حق. نحن أكثر استخفافاً، نحن أقل تعلقاً بترائنا، حتى إننا لا نحب التراث، أو نحن على الأقل لا نحترمه إلى الدرجة القصوى من الاحترام، دون أن نعرف ما هو الأمر. نحن نخرط في اهتمامات أوروبية، مشتركة بين الإنسانية جمعاء، اهتمامات لا تخص أي أمة بعينها، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا نعالج كل شيء ببرود أكبر وفتور أشد،

كأنما نحن نعالج هذا الشيء من باب القيام بواجب من الواجبات، ونعالجه معالجة فيها استقلال أكبر وانفصال أشد على كل حال. ولكن فلنعد إلى الموضوع الذي كنا بصده. إن «حبيبي» ساذج إلى أقصى حدود السذاجة في بعض الأحيان. إنه حين ينتزعه مثلاً حول نوافير المياه يأخذ يحدث «غزالي» فيشرح لها لماذا يرتفع الماء من النافورة عمودياً... إنه يشرح لها قوانين الطبيعة، ويشعر في حضورها بالعزة الوطنية والكبرياء القومية من جمال غابة بولونيا. ومن جمال الإضاءة، ومن روعة تراقص «المياه الكبرى» في حدائق قصر فرساي، ومن انتصارات الامبراطور نابوليون، ومن «المجد الحربي». وهو يجد لذة كبيرة حين يراها تصغي إليه مستطلعة، ويجد سعادة عظيمة وفتنة كبرى حين يلاحظ أنها مبتهجة مغتبطة. وإن أكرر «غزالي» تبرهن لزوجها على عاطفة رقيقة وحنان كبير، لا تظاهراً وتصنعاً، فإن حنانها خالص لوجه الحنان مبرأ من المنفعة رغم القرنين اللذين حملته إياهما على رأسه. لست أطمع طبعاً، كما فعل الشيطان «لوساج» أن أزيح أسطح المنازل. وإنما أنا أروي ما خطف بصري فاستطعت أن ألاحظه. تقول لك «الغزالي» فلانة: «إن زوجي لم ير البحر حتى الآن»، ويعبر صوتها عندئذ عن شفقة ساذجة صادقة. معنى قولها أن زوجها لم يذهب بعد إلى برست أو إلى بولوني ليرى البحر.

يجب أن نعرف أن للبورجوازي حاجات شديدة السذاجة والبراءة، عظيمة الجد والخطورة، حاجات كادت تصبح عادة عامة. مثال ذلك أن له، عدا الحاجة إلى جمع المال والحاجة إلى البلاغة، حاجتين اثنتين مشروعتين جداً، كرستهما العادة، فهو ينظر إليهما نظرة جادة تكاد تشتمل على كثير من التأثير والعاطفة. فأما الحاجة الأولى فهي «أن يرى البحر». يمكث البورجوازي في باريس طوال حياته أحياناً بسبب انشغاله بالتجارة، فلا يرى البحر. لماذا يجب عليه أن يرى البحر؟ هو نفسه لا يعرف جواباً عن هذا السؤال، ولكن رغبته في رؤية البحر رغبة حارة عنيفة قوية جامحة. ومع ذلك تراه يرجئ السفر من سنة إلى سنة. وهو يحزن من ذلك حزناً شديداً، وتشاطره زوجته حزنه. إن العاطفة تلعب هنا دوراً كبيراً على وجه العموم، وأنا أقدر هذا وأحترمه. وأخيراً يفلح في أن يجد الوقت والمال، فيعد عدته ويهيئ نفسه ويمضي «يرى البحر» بضعة أيام. فإذا عاد من رحلته راح يروي مشاعره وانطباعاته بكثير من الحرارة والحماسة، لزوجته وأقربائه وأصدقائه، ويظل يتذكر بكثير من السرور والسعادة، طوال حياته، أنه رأى البحر.

وأما الحاجة الثانية المشروعة التي لا تقل عن الأولى قوة وعنفاً لدى البورجوازي، فهي أن «يتقلب على العشب». إن الباريسي، متى خرج من مدينته، يحب كثيراً أن يتمدد على العشب، بل إنه يرى ذلك واجباً من الواجبات التي تقع على عاتقه، فهو يقوم بهذا الواجب بوقار ومهابة، شاعراً أنه بذلك يتواصل «مع الطبيعة»، ويجب كذلك أن يراه الناس ويلاحظوه وهو على هذه الحال. ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الباريسي سرعان ما يحس حين يخرج من المدينة أن من واجبه أن يصبح أكثر انطلاقة وأقل تحرجاً وتقيداً، وأشد فرحاً ومرحاً، بل وأعظم جرأة وجسارة، أي أن يبدو أبعد عن التصنع وأقرب إلى الطبيعة. إنه يريد أن يصبح «إنسان الطبيعة والحقيقة». ألم يظهر «حب الطبيعة» لدى البورجوازي منذ أيام جان جاك روسو؟

على أن البورجوازي لا يحقق هاتين الحاجتين كثيرًا - أعني رؤية البحر والتدحرج على العشب - إلا بعد أن يكون قد جمع ثروة، أي بعد أن يكون قد أخذ يقدر نفسه ويحترم نفسه. ثم أن «التدحرج على العشب، يكون أمتع وألذ كثيرًا حين يقوم به البورجوازي على أرض هو صاحبها، على أرض اشتراها بما ادخر من مال. والبورجوازي على وجه العموم، حين ينسحب من حلبة الأعمال، يحب أن يملك أرضًا، بل وأن يكون له منزله وحديقته وسياحه ودجاجاته وبقرته. وهو ما ينفك يردده لنفسه ولضيوفه قوله: «شجرتي»، «جداري»، ويظل على هذه الحال إلى آخر أيام حياته. فالتقلب على العشب إنما يحلو للبورجوازي إذن حين تكون الأرض أرضه. ومن أجل أن يقوم بهذا الواجب نراه ينشئ أمام منزله مرجًا. وقد رُوِيَ لي أن الحشيش رفض أن ينبت عند أحد البورجوازيين في المكان الذي حدده لإنشاء المرج. فرغم جميع ما بذله البورجوازي من نشاط في زرع حشيش جاء به من موضع آخر، وفي سقاية هذا الحشيش والعناية به فإن الحشيش كان ما يلبث أن يزول ويموت. تلك كانت طبيعة الأرض أمام المنزل. فما كان من الرجل إلا أن اشترى حشيشًا صناعيًا. ذهب خصيصًا إلى باريس فأوصى على بساط مستدير من حشيش صناعي، قطره عدة أمتار، حتى إذا صار البساط عنده أخذ يمدده كل يوم بعد الظهيرة على الأرض ليتوهم أنه عشب فيرضي حاجته المشروعة إلى التقلب على العشب. ليس بعيدًا عن بورجوازي ما يزال ثملًا من امتلاك أرض اقتناها بحق، ليس بعيدًا عنه أن يتصرف هذا التصرف، وليس في عمله ذلك شيء غير معقول من الناحية النفسية.

ولكن فلنتكلم قليلًا عن جوستاف. إن جوستاف شبيه طبعًا بالبورجوازي، فهو بائع أو تاجر أو موظف أو «أديب» أو ضابط. هو «حبيبي» نفسه، لكنه عازب. وليس هذا هو الأمر الهام على كل حال، وإنما الأمر الهام زينة جوستاف ووضعه الراهن وهيئته وهندامه. إن الصورة المثلى للعشيق جوستاف تختلف باختلاف الزوجات، وهو يظهر على المسرح دائمًا في الصورة التي هو عليها في المجتمع. إن البورجوازي يحب التمثيليات الهزلية (الفودفيل)، ولكنه يحب الميلودراما أكثر من ذلك أيضًا. فالمسرحية الهزلية البسيطة المرحلة - وهي الانتاج الفني الوحيد الذي يستحيل نقل غراسه من أرض إلى أرض، ويستحيل نباته في غير موطنه، ويستحيل أن يعيش في غير المكان الذي ولد فيه، أي باريس - أقول إن المسرحية الهزلية هذه لا تعجب البورجوازي إعجابًا كاملاً تمامًا، وإن كانت ترضيه أنه يعدها من السفاسف. إنه ينشد الروعة، ينشد «النبيل الذي لا يوصف»، ينشد الحساسية. والميلودراما تضم ذلك كله. الميلودراما شيء لا غنى للباريسي عنه. وستبقى الميلودراما ما بقي البورجوازي. شيء غريب: إن المسرحية الهزلية نفسها يصيبها الآن تغير وتحول. فرغم أنها ما تزال مرحلة مضحكة، فإن عنصرًا آخر هو الوعظ الأخلاقي يتسلل إليها ويندس فيها شيئًا بعد شيء. إن البورجوازي يحب الوعظ الأخلاقي في كل لحظة، من أجله ومن أجل «غزائه». ذلك في نظره واجب مقدس، ذلك في نظره شيء جوهري. وما دام البورجوازي يسيطر الآن بلا حدود، ما دام هو القوة، وما دام كتاب المسرحيات الهزلية والميلودرامات خاضعين دائمًا للقوة، تستعبد لهم ويتملقونها، لذلك نرى البورجوازي ينتصر رغم أن الضحك يدور عليه

وأن السخرية تتناولها؛ ولذلك نرى المسرحية تعلن له في النهاية أن كل شيء يجري على ما يرام. لا بد أن هذه النسب تطمئن البورجوازي كثيرًا. إن كل من يستبد به الجبن فلا يكون مقتنعًا بأن عمله ناجح، يحس بحاجة أليمة إلى أن يخدع نفسه بالوهم، إلى أن يعزي نفسه، إلى أن يهدئ روعه. حتى لقد يأخذ يصدّق البشائر. والأمر على هذا النحو هنا. في الميلودراما تظهر على المسرح صفات كريمة وقدرات رائعة. ليس هذا هزلًا. إنه انتصار مؤثر لكل ما يحبه «حبيبي» كثيرًا. إن «حبيبي» يحترم خاصة الهدوء السياسي وحق الإنسان في أن يجمع المال ليُنظم بيته على أهدأ نحو ممكن. فهذا هو اتجاه الميلودراما الحالية؛ وإن طبع جوستاف يناسب هذا الاتجاه. فمن النظر إلى جوستاف نستطيع دائمًا أن نتحقق من المثل الأعلى للنبل العظيم في نظر «حبيبي»، في لحظة معينة (47).

كان جوستاف، في الزمان الماضي، البعيد، يظهر على المسرح شاعرًا أو رسامًا أو عبقرية مجهولة مغبونة مظلومة هي ضحية الاضطهاد. كان جوستاف يناضل ويكافح في نيل، وكانت المسرحية تنتهي دائمًا بأن نرى الفيكونتييسة، المفتونة به سرًا رغم أنها تقابله بقلة المبالاة وعدم الاكتراث، تزوجه اليتيمة التي هي وصية عليها، أقصد الفتاة القاصر سيسيل التي لا تملك قرشًا واحدًا ولكن يتضح فجأة أنها غنية غنى عظيمًا. كان جوستاف في العادة يتمرد ويرفض المال. ولكن ها هو ذا عمله يتوج في «الصالون» بالنجاح. ها هم أولاء ثلاثة أثرياء مضحكون يظهرون فجأة عنده فيعرض كل واحد منهم عليه مائة ألف فرنك ثمنًا للوحة مقبلة يرسمها. ويسخر منهم جوستاف باحتقار، ويعلن بياسر مر أن البشر جميعًا أوغاد لا يستحقون ريشته، وأنه لن يهب الفن، الفن المقدس، لأناس تافهين لا يعرفون قدر الفن، أناس ظلوا يجهلون عبقريته حتى الآن. ولكنها ها هي ذي الفيكونتييسة تظهر فتعلن له أن سيسيل تموت حبًا به وأن عليه إذن أن يرسم لوحات. عندئذ يحزر جوستاف أن الفيكونتييسة، التي كانت قبل ذلك عدوته والتي كانت مساعياها هي التي جعلت لوحاته تُرفض في «الصالون»، يحزر أنها تحبه سرًا. وأنها إنما كانت تنتقم بدافع الغيرة. ويقبل جوستاف المال من الأثرياء الثلاثة طبعًا، بعد أن يكون قد شتمهم، وذلك أمر يُسرون هم منه ويظلون مفتونين به؛ ثم يهرع إلى عند سيسيل فيقبل أن يأخذ المليون الذي تملكه، ويغفر للفيكونتييسة التي تعتزل الحياة بعد ذلك في أطيائها. هكذا يتزوج جوستاف زواجًا شرعيًا، ويأخذ ينجب ذرية، ويرتدي صدره أنيقة وقبعة جميلة، ويتنزه في المساء مع «غزاته» قرب نوافير المياه التي تُرطب الجو والتي لا بد أن يذكره خريرها الهادئ بما تتصف به سعادته على هذه الأرض من دوام وبقاء، وصلابة ومتانة، وهدوء وسكينة.

وبدلاً من أن يكون جوستاف مستخدمًا في محل تجاري، يحدث أحيانًا أن يكون يتيمًا مضطهدًا تُساء معاملته، ولكن روحه تفيض «نُبلاً لا يوصف». وفجأة يكتشف أنه ليس يتيمًا، وإنما هو الإبن الشرعي للثري الكبير روتشيلد، وها هي ذي الملايين تهوي إليه وتتساقط عليه (47). ويرفضها جوستاف بأنفة وشمم وإباء. لماذا؟ لأن البلاغة توجب ذلك. عندئذ تظهر مدام بوبريه، زوجة صاحب البنك الذي يعمل جوستاف مستخدمًا عنده، وهي مولهة بحبه. ها هي ذي تعلن له أن سيسيل تموت

من شدة حبها له، وأن عليه أن يمضى إليها لإنقاذها. فيحزر جوستاف أن مدام بوبريه تحبه، فيأخذ الملايين، وبعد أن يشتم ويهين جميع الناس بأسوأ الكلام، لأنه لا يوجد في الإنسانية كلها نبل عظيم كنبله، يمضي إلى سيسيل ويتزوجها. وتتسحب زوجة صاحب البنك إلى أطيانها. لقد انتصر بوبريه، لأن زوجته التي كادت تسقط، ما تزال عفة طاهرة الذيل. وينجب جوستاف ذرية، ويمضي ينتزه في المساء قرب نوافير المياه التي ترطب الجو والتي لا بد أن يذكره خريرها الهادىء.. إلخ. إلخ.

كذلك كان الأمر في الماضي. أما الآن فإن النبل العظيم «الذي لا يوصف» إنما يمثله في أكثر الأحيان ضابط من سلاح الهندسة أو غيره، يحمل وسام صليب الشرف طبعاً، وهو وسام «دفع ثمنه من دمه». بالمناسبة: إن هذا الشريط الذي يزدان به صدر صاحب الوسام قد أصبح لا يحتمل ولا يطاق. إن من يحمل هذا الوسام يبلغ من الغرور أنك لا تكاد تستطيع أن تقاربه أو أن تكلمه أو أن تصحبه في سفر أو في مسرح، أو أن تصادفه في مطعم. إنه يزدريك ويحتقرك علانية بوقاحة، حتى ليكاد يبصق في وجهك. إنه يلهث ويختنق تكبراً وصلفاً وزهواً، حتى لتشعر من ذلك بغثيان، ويزيد إفراز الصفراء في جسمك، وتضطر إلى الاستغاثة بطبيب. ولكن الفرنسيين يحبون هذا كثيراً. ومن الأمور البارزة أيضاً أن مسيو بوبريه قد أصبح المسرح يهتم به اهتماماً شديداً مفرطاً أو قل على الأقل أن المسرح قد أصبح يهتم به الآن اهتماماً أوضح من اهتمامه به في الماضي. إن مسيو بوبريه قد جمع ما لا كثيراً بطبيعة الحال، واقتنى أشياء كثيرة. هو صريح، بسيط. عاداته البورجوازية وصفته الزوجية تجعله مضحكاً بعض الشيء، ولكنه طيب مستقيم رفيع النفس نبيل «نبلاً لا يوصف» في ذلك المشهد من المسرحية، الذي يتألم فيه ألماً شديداً من شبهة خيانة «غزالته» له. ومع ذلك فهو يقرر أن يغفر لها بكرم وسخاء. سوف يُكتشف طبعاً أنها طاهرة كحمامة، وأن كل ما فعلته هو أنها لعبت قليلاً، هو أنها شُغفت بجلوساتاف بعض الشغف، ولكن «حبيبي» الذي ترهقها عظمة نفسه هو أعز عندها من كل شيء. أما سيسيل فهي، كما في السابق، فقيرة لا تملك قرشاً واحداً، ولكن ذلك لا يكون إلا في المشهد الأول من المسرحية، ثم تملك بعد ذلك مليوناً. وجوستاف نبيل النفس ذو ألفة وكبرياء، كما هو دائماً، ولكنه أكثر غطرسة، لأنه عسكري. وهو يحرص على وسامه أكثر من حرصه على أي شيء آخر، يحرص على هذا الوسام الذي «دفع ثمنه من دمه»، ويحرص كذلك على سيف أبيه، ولا ينفك يتحدث عن هذا السيف قائلاً «سيف أبي». إنه يتكلم عن هذا السيف بمناسبة وبغير مناسبة، حتى قد لا تفهم عم يتكلم وماذا يريد أن يقول. وهو يشتم، ويبصق، ولكن الجميع يحيونه، بينما المشاهدون ييكون ويصفقون (ييكون فعلاً). وهو لا يملك قرشاً واحداً بطبيعة الحال: ذلك شرط لا بد منه. ومدام بوبريه مولعة بحبه طبعاً. وكذلك سيسيل. ولكنه لا يفتن إلى سيسيل ولا يخطر له هذا الحب على بال. وتظل سيسيل تحترق حباً خلال خمسة فصول من المسرحية. وأخيراً يتساقط تلج أو شيء من هذا القبيل. وتريد سيسيل أن ترمي نفسها ولكن يُدوي في الخارج انفجاران ويدخل جوستاف إلى المسرح ببطاء، ممتقع الوجه معصوب اليد. إن الشريط «الذي دفع جوستاف ثمنه من دمه» يلتصق على معطفه. لقد عوقب الشخص الذي أذاع الوشايات عن سيسيل وأقوالها. وينسى جوستاف

أخيراً أن سيسيل تحبه، وأن هذه كلها من مدام بوبريه. ولكن مدام بوبريه صفراء الوجه مذعورة ويحزر جوستاف أنها تحبه ويدوي انفجار جديد. أغلب الظن أن بوبريه قد انتحر يأساً وقنوطاً. وتطلق مدام بوبريه صرخة وتهرع نحو الباب، ولكن بوبريه يظهر بنفسه وقد حمل ثعلباً مقتولاً أو حيواناً آخر ما. لقد لُقن الدرس، وظهرت العبرة. إن «غزالتى» لن تنساه في يوم من الأيام. وها هي ذي ترتمي على عنق «حبيبي» الذي يغفر كل شيء. ولكن يتضح فجأة أن سيسيل تملك مليوناً، فيثور جوستاف من جديد. إنه لا يريد أن يتزوج. وها هو ذا يصطنع أوضاعاً ويلفظ شتائم. لا بد حتماً من أن يصطنع جوستاف أوضاعاً ومن أن يحتقر المليون. وإلا لم يغفر له البورجوازي قط، ولما كان هنالك قدر كافٍ من «النبيل العظيم الذي لا يوصف». رحماك! لا يذهبن بكم الظن إلى أن البورجوازي يتناقض. لا تقلقوا: إن المليون لن يفلت من الزوجين السعيدين. إنه لا غنى عنه، وهو يظهر دائماً في الخاتمة مكافأة على الفضيلة. إن البورجوازي يظل وفياً لنفسه وينتهي جوستاف إلى قبول المليون وسيسيل. وبعد ذلك تبدأ النزاعات التي لا بد منها قرب النوافير، ونرى القبعات الجميلة، ونسمع خرير المياه، إلخ. إلخ. هكذا تنتصر العواطف الحساسة، ولا سيما «النبيل العظيم الذي لا يوصف»، وينتصر بوبريه، وينتصر المليون خاصة، ينتصر في صورة قدر محتم، في صورة قانون من قوانين الطبيعة يرجع إليه كل الشرف والمجد والاحترام، إلخ. إلخ. ويخرج «حبيبي» و «غزالتى» من المسرح مفتونين وقد هدأت نفسيهما وتعزّت روحاهما. ويرافقهما جوستاف، وفيما هو يساعد «غزالتى» على ركوب العربة، يُقبّل يدها الصغيرة خلسة!... ليس في الإمكان أبدع مما كان... كل شيء، في هذا العالم الذي هو أحسن عالم، يجري على أحسن نحو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



Group Link - لينك الانضمام الى الجروب

Link - لينك القتاة

الفهرس..

عن هذا الكتاب..

تقديم: بقلم الدكتور سامي الدروبي

الفصل الأول

بمّثابة مقدمة

الفصل الثاني

في القطار

الفصل الثالث

أُمرور نافلة تماّمًا

الفصل الرابع

أُمرور غير نافلة بالنسبة إلى مسافرين

الفصل الخامس

بعل

الفصل السادس

بِحث في البرجوازي

الفصل السابع

تتمة ما تقدم

الفصل الثامن

حببتي وعزّالتي

الفهرس..

Notes

[←1]

مسز آن رادكليف (1764 - 1823): كاتبة وروائية إنجليزية راجت رواياتها المرعبة رواجًا كبيرًا في أوروبا كلها، وقد ترجمت كتبها إلى الروسية، في عهد ألكسندر الأول، أكثر مما ترجمت مؤلفات أي كاتب آخر.

[←2]

بلاد العجائب المقدسة: مطلع قصيدة تدعو إلى السلافية للشاعر ألكسي
ستيبانوفتش خومياكوف (1804 - 1860). عنوانها: أحلام (1843)، وفيها
يقول:

لشد ما يحزنني أن أرى الظلمات

تلف الغرب البعيد

بلاد العجائب المقدسة.

[←3]

شارع أشجار الزيتون: شارع رئيسي في برلين.

[←4]

إن صور الجدران في متحف برلين، للرسم فلهم فون كاولباخ (1800-1878)، كانت تجذب الإهتمام بجديتها وطرافتها.

[←5]

فزيڤولود فلاديميروفيتش كرسٲوفسكي (1840 - 1895): إن هذا الشاعر الذي سيخصص في الروايات الخفيفة كان قد بدأ حياته الأدبية بقصائد غزلية جنسية جمعت في ديوان سنة 1862.

[←6]

يعرف القارئ أن دوستوفسكي قد تخرج مهندساً معمارياً من المدرسة العسكرية للهندسة.

نيكولا ميخائيلوفتش كارامازين (1766-1826): شاعر وروائي ومؤرخ، هو الذي أدخل العاطفية، إلى روسيا. ويعد كتابه «رسائل مسافر» أثرًا أدبيًا جميلًا. ويشير دوستوفسكي هنا إلى فقرة وردت في رسالة مؤرخة من إيجليزو في 14 آب / أغسطس 1789، وفيها يقول كارامازين: «ابتهجت ابتهاجًا عظيمًا وكدت أركع مستغفرًا نهر الراين أنني تكلمت أمس عن شلاله بقليل جدًا من الاحترام»

هو دينيس إيفانوفتش فونفيزين (1744-1792): الخالق الحقيقي للكوميديا الروسية الحديثة. أحسن آثاره مسرحية «البريجادير» التي لقيت نجاحًا عظيمًا. وقد قام سنة 1778 برحلة إلى فرنسا لاستشارة الأطباء بمدينة مونبلييه، فأرسل إلى أصدقائه من ليون ومونبلييه وباريس رسائل تشتمل على تفاصيل شائقة، ولكنها تدل في الوقت نفسه على كره شديد للفرنسيين، مع أنه قد ظل طول حياته يترجم أو يقلد (كما يقول بعضهم) هؤلاء الفرنسيين الذين شهر بهم ذلك التشهير. والجملة التي يوردها دوستوفسكي توجد في الرسالة الرابعة والستين الذي أرسلها من أيكس لاشابيل في شهر أيلول (سبتمبر) 1778 إلى الجنرال الكونت بطرس إيفانوفتش بانين وهذا نصها الدقيق: «الفرنسي محروم من العقل، ولو أوتى عقلاً لعد ذلك أكبر شقاء، لأن العقل سيضطره إلى التفكير بينما هو يستطيع أن يتسلى»

[←9]

بيساريون جريجوريفتش بيلنسكي (1811-1848): ناقد شهير، كان يمجّد الغرب ويدعو إلى الإقتداء بالغرب، ولا سيما في أواخر حياته.

[←10]

بطرس ياكوفليف تشاديف (1794-1856): كتب باللغة الفرنسية كتابًا بعنوان «رسائل فلسفية»، وفيه بلغ من التهكم على «الفكرة الروسية» أن نيكولا الأول اعتقد أن من المستحسن أن يعد مصابًا بلوثة عقلية. والحق أن دعاة النزعة الغربية قد بالغوا مبالغات لعلمهم لم يؤمنوا بها في يوم من الأيام، ولعل خصومهم لم يقلوا عنهم غلوا كذلك.

[←11]

آيدتكونن: محطة حدود بروسية على خط برلين - بطرسبرج.

آن بيلوبياتكين هو بطل قصة كتبها إبان شبابه الشاعر نيكولا ألكسيفتش
نكراسوف (1821-1878) وعنوانها: «الثرثار، يوميات آن بيلوبياتكين،
مواطن بطرسبرج»، وهي نوع من السرد لوقائع كتبها المؤلف شعرًا مقفى
وهذا هو المقطع الذي يشير إليه دوستويفسكي:

ما دمت أشعر بحماسة شعرية

تشب في نفسي

فدعوني أرسم لكم صورتني

مستمدة من حياتي.

كنت في الماضي شديد الحماسة

أحلم مثلكم تمامًا،

وأُلق في الأثير

و «أحب أن أهرب إلى سويسرا»

ولكن صانع قدرتي

ضربني بعصاه ضربات كبيرة

فأسقطني من الأثير

وأجلسني وراء مكتب

إن مربية بوشكين هذه قد أطلعتة على الفولكلور الروسي، فساهمت كثيرًا في تنمية عاطفته القومية الشعبية. فبفضل هذا الاتصال الأول بأرض الوطن إنما استطاع بوشكين الذي ربّي على الطريقة الفرنسية والذي يعترف بأنه يجيد استعمال اللغة الفرنسية أكثر من اللغة الروسية، أن يتحرر شيئًا فشيئًا من التأثيرات الأجنبية حتى أصبح أكثر الشعراء الروس تمثيلًا للقومية الروسية.

[←14]

إشارة إلى قصة الشاعر بوشكين «بنت الضابط» (1836)، التي كان بطلها
المتنرد القوزاقي الشهير بوجاتشيف.

[←15]

إشارة إلى كتاب بوشكين: «أقاصيص المرحوم إيفان بتروفنتش بيلكين»
(1831) التي نسبها بوشكين إلى رجل من صغار مالكي الأقطان.

[←16]

إشارة إلى رواية بوشكين «أوجين أوجنين» (1824-1828) وهي رواية كتبها بوشكين شعراً وفيها يصف الشاعر تقاليد الأرستقراطية الروسية وصفاً ساخراً.

[←17]

سيعدد دوستويفسكي في الفصل التالي بعض هذه الغرائب التي تعلق بها أهل موسكو، ولا سيما طريقة قص الذقن، وكذلك ما زعم بعضهم أنه «لباس قومي» فإن هذه الغرائب قد أساء بها «دعاة السلافية» إلى عقيدتهم مهما يكن حسن نياتهم.

[←18]

دام المعرض العام، بلندن من أول أيار (مايو) إلى أول تشرين الثاني
(نوفمبر) سنة 1862.

[←19]

«كوكوشنيك»: قماش مطرز مزدان بلآلىء يوضع على الرأس جزءًا من
اللباس القومي القديم الذي كانت تلبسه النساء.

[←20]

لعل دوستويفسكي يشير هنا إلى كونستانتان سيرجيفتش أكساكوف (1817-1860) الذي كان من غلاة «السلافية»، وقد أخذ عليه تورجنيف هذا الشذوذ في كتابه: «مذكرات صياد»

[←21]

كان ميشيل أفجرافوفتش سالتيكوف (1826-1889) وهو روائي روسي
ساخر، قد نشر في سنتي 1856 و 1857 كتابه «صور من الأرياف»، باسم
مستعار هو إسم شندرين الذي أصبح اسمًا شهيرًا.

[←22]

جريجوري ألكسندروفيتش بوتيومكين: أمير توريد، أنير كاترين الثانية الشهير (1735-1791). ولعل العبارة التي يوردها دوستوفسكي هنا « مت يا دنيس، فلن تكتب شيئاً خيراً من هذا، قد أفلتت منه أثناء العرض الأول لمسرحية «لبريجادير».

يروي دوستوفسكي هنا عن الذاكرة بيتين من قصيدة مشهورة للشاعر
جابريل رومانوفتش دريافين (1816-1743) بعنوان «الإستيلاء على
فارصوفيا» (1794). وهي تلك القصيدة يقول الشاعر عن سوفوروف:

يقف على الجبال فتتشق الجبال

ويقف على المياه فتغلي المياه.

إذا لمس مدينة تهدمت المدينة.

وبيده يقلف الأبراج فتخترق الأبراج السحاب.

الطبيعة ترتعش وتصفر خوفاً منه.

أعواد القصب وحدها يراف بها.

«كوزما بروتكوف»: نموذج موظف من إبتكار الشاعر ألكسي كونستانتينوفتش تولستوي (1817-1875) وقريبه ألكسي وفلاديمير يمتشوينيكوف. لقد نشروا بهذا الاسم المستعار تقليدات هزلية لشعراء معاصرين. أما «دفتر جدي» الذي دسوه في مجلة «المعاصر» التي يصدرها بانايف ونكراسوف، فقد نسبوه إلى جد كوزما بروتكوف، الميجر فيدوت كوزمتش بروتكوف. وقد ضم هذا «الدفتر» سبع عشرة حكاية أو نادرة. والنادرة التي يرويها دوستويفسكي هي الثالثة في المجموعة.

[←25]

بيت من قصيدة للشاعر ليرمونتوف (1814-1841) عنوانها «تأمل»
(1840).

[←26]

من مسرحية للشاعر جريبيويدوف عنوانها «كثير من الذكاء ضرر»، الفصل الثاني، المشهد الثاني.

[←27]

الكابتن كوبيتكين الذي يتحدث عنه جوجول في كتابه «النفوس الميتة» الجزء الأول، الفصل العاشر.

[←28]

بازاروف، كوكشين: شخصيتان من شخصيات كتاب تورجنيف الآباء والأبناء، الذي صدر سنة 1861 وأثار مساجلات عنيفة.

تشانسكي: الشخصية الرئيسية في المسرحية الهزلية الشهيرة التي كتبها ألكسندر سيرجيفتش جريبويدوف (1795-1829) وعنوانها «كثير من الذكاء ضرر» (نشرت سنة 1833). وجميع الأسماء التي سيجيء ذكرها بعد ذلك هي أسماء شخصيات في هذه المسرحية. وإن شخصية مولتساليين هي نموذج الموظف الوصولي. والشعر المذكور: «ملاذًا للعاطفة الجريحة المهانة». مستمد من المشهد الختامي لهذه المسرحية (الفصل الخامس، المشهد الرابع عشر).

[←30]

«السامودور»: تعني هذه الكلمة شخصًا مزهواً بنفسه رغم أنه محدود العقل غبي العناد. وقد راجت هذه الكلمة بفضل المؤلف المسرحي ألكسندر نيكولايفتش أوستروفسكي (1823-1887) الذي تزخر مسرحياته بنماذج «للسامودور» أسيرة أخاذة.

[←31]

رييتلوف، سكالوزوبوف، فاموسوف، خلستوفا، مولتشالين: شخصيات من
مسرحية جريبيدوف الأنف ذكرها.

[←32]

كلمة المؤرخ والناقد نيكولا ألكسيفتش بولفوي (1846-1796) ونصها
الدقيق ما يلي: «أنا أعرف روسيا، وأحب روسيا وروسيا تعرفني وتحبني»،
وقد جلبت هذه الكلمة لقائلها سخريات معاصريه، ولا سيما بيأنسكي.

[←33]

من نصين في رؤيا يوحنا (الإصحاح السابع: 9؛ والإصحاح السادس: 10)،
وقد كان دوستويفسكي يكثر من قراءة هذا السفر.

[←34]

«الزوجة والزوج وعشيق الزوجة»: رواية من تأليف بول دو كوك ترجمت إلى الروسية سنة 1833.

[←35]

إنجيل متى (الإصحاح السادس: 33).

«كل واحد للجميع، والجميع لكل واحد»: هذا هو الشعار الذي زَيَّنَ بِهِ أُنْيِين كَابِيه كتابه الشهير «رحلة إلى إيكاريا» (1840). وفي عام 1849 أنشأ كَابِيه في تكساس وحدة إنتاجية اشتراكية على مبادئ فورييه، ثم انتزعت إدارتها منه بعد منازعات كثيرة ودعوى مدوية.

والكومونة الثانية التي قامت على مبادئ فورييه أنشأها سنة 1853 في تكساس فكتور كونسيدران.

[←37]

أيام حزيران إشارة إلى ثورة العمال من 23 الى 23 حزيران (يونية) سنة 1848، وهي الثورة التي سحقها جافينياك.

[←38]

بعد إخفاق حملة غاريبالدي على روما، هزمه الجيش الملكي في أسبرو
مونت في التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس) 1862 (إن هذا التاريخ
يسمح لنا بتحديد فترة رحلة دوستوفسكي).

[←39]

ترأس غاريبالدي الحكومة الثورية في نابولي منذ السابع من شهر أيلول
(سبتمبر) حتى الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1860.

[←40]

تبيير: (ماري جوزيف لويس أدولف تبيير) رجل دولة ومؤرخ فرنسي، ولد عام 1797 وتوفي عام 1877.

[←41]

جيزو: (فرانسوا جيزو) سياسي ومؤرخ فرنسي من مواليد مدينة نيم في عام 1787، وتوفي بمدينة سانت أوين لو بان في عام 1874.

[←42]

أوديلون بارو: سياسي فرنسي ولد عام 1791 وتوفي عام 1873.)

[←43]

الأمير جيروم نابوليون بونابرت (1822-1891)، قريب نابوليون الثالث،
كان عضوًا بمجلس الشيوخ.

[←44]

«جول فافر» (1809-1880): محامٍ وسياسي، عضو في الهيئة التشريعية منذ سنة 1858.

[←45]

بيير كورني: شاعر مسرحي فرانسى كبير

[←46]

«رجل الطبيعة والحقيقة»: استشهد غير دقيق بعبارة واردة في كتاب روسو الاعترافات، وفيها يقول جان جاك: «أريد أن أرى أقراني البشر رجالاً تظهر فيه كل حقيقة الطبيعة. وهذا الرجل هو أنا».

[←47]

يستوحى دوستويفسكي كلامه في هذه الصفحات من ملهاة ألفها إميل أو جيبه
بعنوان «السيد جيران»